ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــدد : ١٢ ، السنـــة : ٥٠

ذوالحجة ١٤٤٧هـ ، مايو – يونيو ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ الحج عبادة عالمية	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكـر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩

دراسات إسلامية

♦ فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِقَ	الدكتور محمد سلام مدكور	١٤
♦ من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	١٩
♦ أثر الإحسان في فريضة الحج	الدكتور عبد الوهاب القرش	٢٧
♦ حماية الإسلام للنفوس من الضرر المعنوي	الأستاذ يوسف العزوزي	٣٥
♦ اختلاف الرأي: أصول و آداب	الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي	٤٤
♦ الكذب على رسول الله أو الحديث الموضوع	الشيخ محمد عبد الظاهر خليفة	٥٠

إشـراقـــــة

♦ مسجد نموذجي	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

الحج عبادة عالمية

كان من مشيئة الله تعالى أن يصبغ التساوي بين البشر بصبغة من العبادة، ففرض سبحانه عبادة الحج، تجتمع عليها أمم العالم شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، اجتماعًا يقضي على جميع صور التفرقة الطبقية والقبلية والعرقية، ويجتث جراثيمها التي تجري في البشر البعيد عن دين الله تعالى مجرى الدم في الشرايين، وتحقيقًا لهذا الهدف النبيل السامي جعل هذه الكعبة المشرفة قبلةً للبشر كلهم؛ فقد أكدت الأحاديث النبوية أنه لم يأت نبي إلا وحج هذا البيت، وطاف به. و وُضِع هذا البيت لا لفئة خاصة من البشر؛ بل للناس جميعًا، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، فلم يقل: وضع للعرب أو للعجم خاصة؛ بل للناس جميعًا، ويقتضي كونه موضوعًا للناس أن يكون مشتركا فيه بين جميعهم، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان موضوعًا للطاعات والعبادات وقبلة للخلق جميعًا، فكان موضعًا للحج، وقبلةً للصلوات، ومكانًا يزداد فيه ثواب الطاعات والعبادات.

ومما يوحي إلى عالمية هذه العبادة السامية أن الله تعالى حين أمر إبراهيم أن ينادي بالحج أمره بأن يؤذن في الناس، لا في فئة دون فئة منهم، فقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]. فتولى هذا التأذينَ والإعلان نبيٌّ وصفه القرآن الكريم بإمام الناس، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]، فإبراهيم عليه السلام إمام للناس لا إمام فئة دون فئة من البشر، أو منطقة دون منطقة من الأرض، فلاتجد أمة من الأمم الكبرى في العالم إلا وهي تفتخر بالانتساب إليه. فكان المؤذن إمامَ الناس، وتوجه هذا الإعلانُ إلى الناس جميعًا، فقال: «يا أيها الناس: إن ربكم قد بنى بيتًا، فحجُّوه»، ولم يقل: أيها العرب، أو يا أهل الشام أو يا أهل العراق.

فكانت هذه العبادة عبادة عالمية تحضرها أمم العالم من أدناه إلى أقصاه على حد سواء، فكان من الطبيعي أن تتجلى فيهم عواطف الأخوة الإسلامية، والتساوي العالمي، والإخاء العالمي. ثم إذا أمعنت النظر وجدتَ – بجانب التساوي في الأمم- التساوي في أفرادها المتجهين إلى هذه البقاع المباركة، وإلى هذا البيت الذي وصفه القرآن الكريم بـ(مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ)، فتذهب الفوارق الطبقية والمظاهر الاجتماعية مهب الريح، ويتجرد الحجاج عن مظاهر الدنيا، وينزعون ثيابهم ويلبسون ثياب الإحرام – قطعتين من قماش- فلايبقى من فرق بين غني و فقير أو أبيض وأسود أو عربي وأعجمي، أو ملك وسوقة، ولايبقى في نفس الصغيرة مذلة، ولا في نفس الكبير كبر، ولا يعود يمتاز بعضهم عن بعض. فهم متساوون في أعمالهم في الطواف بالبيت، وفي الوقوف بعرفة، وفي المشاعر، وهنا تتحق المساواة التي يتلهف لها الحضارة، و يتلمسها الناس فلايجدون إليها سبيلا، فهم سواء أمام الناس، وسواء أمام الله تعالى، وهنا يولي المالُ دبره فلايبقى له عمل في المفاضلة، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة صباحًا من يوم الجمعة: ١٤٤٧/١٠/٢١=٢٠٢٦/٤/١٠م)

فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم

الحج أحد أركان الإسلام وشعيرة من أهم شعائره، وتعظيم هذه الشعيرة من تقوى القلوب كما نبه القرآن الكريم عليه، فقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]. والحج فريضة من فرائض الإسلام التي تهوي إليها القلوب وتنجذب بصورة تلقائية، و رغم ما يعاني المرء في أدائها من مشقات ومتاعب بأنواعها وصورها وألوانها يجد فيها من اللذة والمتعة ما يستهوي قلبه ويجذبه إليها، على العكس من بعض العبادات والفرائض التي قد تشق على بعض الناس، فهذه الصلاة - مثلًا- وصفت بأنها كبيرة، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

وهذا الميل والشوق والنزوع إلى بيت الله تعالى والحج إليه يرجع إلى دعوة إبراهيم عليه السلام حين أسكن ذريته في واد غير زرع، فتضرع إلى الله تعالى أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، فقد حكى الله تعالى في آيات سورة البقرة رقم ١٢٦ فما بعدها أنه طلب سبعة أمور، بدءًا بطلب الأمن بقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، ومن هذه الأمور التي طلبها إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فكان من دعوة إبراهيم عليه السلام أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، يقول أبو السعود: «وأولُ آثارِ هذه الدعوة ماروي أنه مرت رِفقةٌ من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا: إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشر فوا فإذا هم بهاجرَ، فقالوا لها: إن شئت كنا معك، وآنسناك، والماء ماؤك، فأذِنت لهم. وكانوا معها إلى أن شب إسماعيل عليه السلام، وماتت هاجرُ، فتزوج إسماعيل منهم كما هو المشهور».

وروى البخاري في صحيحه [برقم:٣٣٦٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ:

«يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينا معينا» قال: فشربت و أرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس» فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته».

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك (أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ)، و«من» للتبعيض، ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال: أَفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل: «مِنْ لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند».

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وفيه مباحث: البحث الأول: قال الأصمعي: هوى يهوي هويًا بالفتح إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: تهوي إليهم تريدهم، وقيل: تسرع إليهم. وقيل: تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل، يقال: هوى الحجر من رأس الجبل يهوي إذا انحدر و انصب، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل. البحث الثاني: أن هذا الدعاء جامع للدين و الدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم».

ويقول ابن عاشور في تفسير الآية: «وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة. وتهيأ بذلك أن يفرع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم؛ لأن همة الصالحين في إقامة الدين. والأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب. والمراد به هنا النفس والعقل. و المراد فاجعل أناسًا يهوون إليهم. فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد، فلما ذكر أفئدة لهذه النكتة حسن بيانه بأنهم من الناس، فـ«من» بيانية لا تبعيضية، إذ لا طائل تحته. والمعنى: فاجعل أناسًا يقصدونهم بحبات قلوبهم. و تهوي- مضارع هوى- بفتح الواو-: سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، كقول امرئ القيس:

كجلمود صخر حطه السيل من عل

ولذلك عدي باللام دون على. والإسراع: جعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم. والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم. والتنكير مطلق يحمل على المتعارف في عمران المدن والأسواق بالواردين، فلذلك لم يقيده في الدعاء بما يدل على الكثرة اكتفاء بما هو معروف. ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين. ورجاء شكرهم داخل في الدعاء؛ لأنه جعل تكملة له تعرضًا للإجابة وزيادةً في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين. و المقصود: توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب».

ويقول البقاعي في تفسير الآية: «ولما كان اشتغالهم بالعبادة وكونهم في ذلك الوادي أمرين بعيدين عن أسباب المعاش، تسبب عنه قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ أي قلوبًا محترقة بالأشواق ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي من أفئدة الذين هم أهل للاضطراب، بكون احتراقها بالشوق مانعًا من اضطرابها ﴿تَهۡوِيٓ﴾ أي تقصدهم فتسرع نحوهم برغبة وشوق إسراع من ينزل من حالق؛ وزاد المعنى وضوحًا وأكده بحرف الغاية الدال على بعد؛ لأن الشيء كلما بعد مدى مرماه اشتد وقعه فقال: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾».

ويقول النيسابوري في تفسير الآية: «وفي هذا الدعاء فائدتان: إحداهما ميل الناس إلى تلك البلدة للنسك والطاعة، والأخرى نقل الأقمشة إليهم للتجارة، وفي ضمن ذلك تتسع معايشهم و تكثر أرزاقهم ومع ذلك قد صرح بها، فقال:

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فلا جرم أجاب الله دعاءه فجعله حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء. وقيل: أراد أن يحصل حواليها القرى والمزارع و البساتين. ثم ختم الآية بقولـه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ ليعلم أن المقصود الأصلي من منافع الدنيا وسعة الرزق هـو التفـرغ لأداء العبـادات وإقامـة الوظـائف الشرعية».

وقال السيوطي في الدر المنثور: «أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يقول: خذ بقلوب الناس إليهم؛ فإنه حيث يهوي القلب يذهب الجسد؛ فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة».

واستجابةً لـدعوة إبـراهيم عليـه السلام هـذا أخرج الله تعالى من ذرية إبراهيم محمدًا ﷺ الذي دعا ذريته إلى ملة إبراهيم، وافترض الله تعالى عليهم حـج البيـت وأودعـه سرًّا أعجـب مـن العجـب العجاب، جاذبًا للقلوب، فهم يحجونه ولايقضون منه وطرهم على الدوام؛ بل كلما أكثروا من زيارته والتردد إليه ازداد شوقهم، وعظُم ولعهم وتوقهم إليه. وتهفو إليه قلوبهم أكثر مما يهفو إلى المحبوب قلب العاشق الهيمان.

وتجد الحاج والمعتمر يقف على موطن الروح، ويـرى هـذه البنيـة السوداء، وهـذا المقـام و زمـزم والحطيم فكأنه في الدنيا وليس في الدنيا، ويخفى عليه كـل شي سـواها، ويـدور بـه الزمـان و يعـود أدراج الرياح على طريق القرون، فيلوح على شاشة مخيلته أحداث الهجرة النبوية، وصحبه إلى المدينة المنورة فـرارًا بـدينهم، وتلمـسًا لموضـع أرحـب للـدعوة الإسلامية، ثم دخول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ منصورًا فاتحًا مكـة المكرمـة التي أخرِج منها هـو أصحابه بغير حق.

والحق أن كل من يحج ليومنا هذا فحجه من إجابة إبراهيم عليه السلام حين نادى بالناس بالحج بأمر الله تعالى، فقد قال تعالى له: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج:٢٧]، ففيه إشارة إلى أن الله تعالى ضمن له استجابة ندائه؛ فقد جعل التأذين سببًا للإتيان، تيسيرًا للحج على الناس، قال ابن عطية في تفسير الآية: «وروي أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بالأذان بالحج قال: يا رب، وإذا ناديت فمن يسمعني؟ فقيل له: نادِ يا إبراهيم، فعليك النداء، وعلينا البلاغ، فصعد على أبي قبيس، وقيل: على حجر المقام، ونادى: أيها الناس، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت، فحجوا. واختلفت الروايات في ألفاظه عليه السلام، واللازم أن يكون فيها ذكر البيت والحج، وروي أنه يوم نادى أسمع

كـل مـن يحـج إلى يـوم القيامـة في أصـلاب الرجـال، وأجابـه كـل شيء في ذلـك الوقـت مـن جمـاد وغـيره: لبيك اللّٰهم لبيك، فجرت التلبية على ذلك، قاله ابن عباس وابن جبير».

وقـال القرطبـي في تفـسير الآيـة: «لمـا فـرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أذن في الناس بـالحج، قـال: يـا رب! ومـا يبلـغ صـوتي؟ قـال: أذن، وعلي الإبلاغ، فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح: يـا أيهـا النـاس، إن الله قـد أمـركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار، فحجوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحـام النـساء: لبيـك اللّٰهم لبيـك! فمـن أجـاب يومئذ حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرة فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين، وجرت التلبية على ذلك، قاله ابن عباس وابن جبير. وروي عن أبي الطفيل قـال: قـال لي ابـن عبـاس: «أتـدري مـا كـان أصـل التلبية؟ قلت لا! قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بـالحج خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى، فنادى في الناس بالحج فأجابه كل شيء: لبيك اللّٰهم لبيك».

وقال الآلوسي في تفسير الآية: «أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر والحاكم و- صححه- والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: «لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال: رب، قد فرغت، فقال: أذن في الناس بالحج قال: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي البلاغ، قال: رب كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس، كتب عليكم الحـج إلى البيـت العتيـق، فـسمعه أهـل الـسماء والأرض، ألا تـرى أنهـم يجيبـون مـن أقـصى الـبلاد يلبون. وجاء في رواية أخرى عنه أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه ثم نادى: يا أيها الناس، إن الله تعالى كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم، فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأول من أجاب أهل اليمن فليس حاج حج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا من أجاب يومئذ إبراهيم عليه السلام، وفي رواية أنه قام على الحجر فنادى، وعن مجاهد أنه عليه السلام قام على الصفا، وفي روايـة أخـرى عنـه أنـه عليـه الـسلام تطـاول بـه المقـام حتـى كـان كـأطول جبـل في الأرض فـأذن بالحج، ويمكن الجمع بتكرر النداء».

فـما أعظـم رقـة ورفرفـة في التعبـير بقولـه: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ «تصور القلـوب رفافـة مجنحـة، وهـي تهـوي إلى ذلـك البيـت وأهله في ذلك الوادي الجديب. إنه تعبير نديّ يندِّي الجدب برقة القلوب..».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(١٠- سورة يونس ١-١٥)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

هذه آيات كتاب محكم متقَن، وكل ما فيه محكم. فألفاظه محكمة؛ لأنها مصونة من التحريف و التبديل إلى الأبد، وعلومه محكمة؛ لأنها توافق العقل والحكمة، وأحكامه محكمة؛ لأنه ليس كتاب آخر يأتي في المستقبل ينسخها، وأخباره وقصصه محكمة بأنها موافقة للواقع تمامًا، وكيف لا؟ وقد أنزله الله تعالى العليم الحكيم بقوة علمه الكامل.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أي ما الذي يثير العجب من أن يكلف الله تعالى واحدًا من البشر أنفسِهم إصلاحَ أحوالهم و هدايتهم، ويرسل إليه أوامره، التي لايعلمها غيره بغير وساطة، فينبِّه الناس جميعًا على عواقب ومغبة معصية الله تعالى الموبقة، ويبشر أهل طاعته سبحانه بأنهم يصلون بأعمالهم الصالحة عند الله تعالى إلى مكانة سامية وعالية جدًا، وكم كَتب الله تعالى لهم من الصلاح والفلاح الأزلي؟!

فائدة: أي يصفون القرآن الكريم بالسحر، والذي نزل عليه القرآن الكريم يصفونه بالساحر؛ لأن الوحي القرآني يفوق العادة البشرية، ويصل إلى قمة التأثير والبلاغة.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

أي في زمن يعدل ستة أيام، واليوم الواحد- على تفسير ابن عباس رضي الله عنهما- ألف سنة، فكأن الأرض والسماء وغيرهما خلقت في مدة ستة آلاف سنة، وإن الله تعالى قادر على أن يخلق الخلق كله في آن واحد؛ ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

بصورة تدريجية، ولعل فيه تلقينًا للعباد بأنه يجب أخذ جانب التأمل والتأني في كل عمل، وإن كانوا قادرين عليه، ثم إن الخلق بصورة تدريجية أظهر من الخلق دفعة واحدةً في بيان أن الله تعالى ليس خالقًا بالاضطرار؛ بل وجود كل شيء يتعلق بمشيئته واختياره الكامل، فيخلق كيف يشاء ومتى يشاء.

فائدة: سبقت آية مماثلة في أول الركوع السابع من سورة الأعراف، فليرجع إليها فيما يخص فائدتها.

فائدة: تدبير وتنظيم أمور الخلق كلها بيده سبحانه وتعالى.

فائدة: أي فضلًا عن أن يشاركه أحد في ألوهيته، لايحرك أحد شفته حتى بالشفاعة بدون إذنه سبحانه وتعالى.

فائدة: أي لايغيبن عن البال: هل من رب آخر يُعبَد سوى الرب الذي سبق بيان صفاته ونعوته؟ فكيف تجرأتم على أن تكذبوا رسالات هذا الخالق المالك الملك المطلق الحكيم الحق، ورسله بمجرد الأوهام والظنون الباطلة؟

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

أي مبدؤكم جميعًا منه، ومنتهاكم إليه، فكيف يصح الخروج على أحكامه ورسله؟

فائدة: أي لايضيع حسنةً وإن صغرت وهانت.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

ذهب البعض إلى أن النور أعم من الضياء، فالضياء يخص النور الأشد ظهورًا ولمعانًا، وقيل: ما كان نوره ذاتيًا فهو ضياء، وما كان نوره مستفادًا من غيره فهو نور. ونور الشمس في عالم الأسباب لايُستفاد من كرة أخرى، ونور القمر مستفاد من الشمس. وذهب بعض المحققين إلى الفرق بينهما بأن النور مطلق الضياء، وأما الضياء والضوء فهو انتشاره، ولما كان انتشار نور الشمس أكثر، عبر عنه بالضياء. والله أعلم بمراده.

فائدة: أي يتقلص بصورة تدريجية، قال تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [يس:٣٩]. وقسم علماء الهيئة دورة القمر على ثمانية وعشرين منزلا، منقسمًا على اثني عشر برجًا، ولم يُرِد القرآن الكريم مصطلحَهم الخاص بهم، وإنما أراد مدراج مطلق السير والمسافة.

فائدة: أي جعل حساب السنين، وحسابات الأيام الصغيرة بالقمر والشمس، وأنى لنا أن نحدد اليوم والليل، والشهور القمرية والشمسية

والسنوات ونحوها لو لا القمر والشمس، في حين نحتاج إلى تحديد الأوقات في كثير من الأحكام الشرعية لشؤون الدنيا وأعمالها وتجاراتها.

فائدة: أي ليست سلسلة الفلكيات هذه كيف ما اتفق؛ بل هي خاضعة لنظام عظيم، وتدبير كبير، وتحمل آلاف الفوائد والحكم.

فائـدة: أي ينظر العقلاء في نظام المصنوعات والمخلوقات هذا ويتوصلون به إلى الله القادر الحكيم، و يدركون من خلال نظام الماديات أن الروحانيات أيضًا: كم خلق الله تعالى فيها من الشموس والأقمار، ولك أن تسمي هؤلاء بالأنبياء والرسل.

إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦

لاشك أن كل شيء في الدنيا صغيره وكبيره أدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته.

فائدة:

في كل شيء له آية ..... تدل على أنه واحد

وسبقت آية مماثلة في سورة البقرة في الربع من الجزء المفتوح بـ(سيقول السفهاء)، شرحت آيات القدرة هذه أكثر بسطًا و تفصيلًا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧

أي علقوا قلوبهم بالدنيا تعليقًا أنساهم عن الأخرة ولقاء الله تعالى، واتخذوا هذه الحياة القصيرة مقصودا وإلها، ولم ينظروا في آيات القدرة المسوقة آنفًا، وأن هذا النظام الحكيم المحكم لم يخلق باطلا، وأنه لابد أن يكون وراء هذا المصنع كله مقصد وهدف، فمن خلق هذه المخلوقات العجيبة البديعة أول مرة، هل يصعب عليه أن يخلقها مرة أخرى؟

أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨

أي ما كسبوا بقلوبهم وعقولهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، جزاؤه نار جهنم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩

أي يهدي الله تعالى المؤمنين بإيمانهم وفي ضوئه إلى الهدف الأصلي وهو الجنة.

دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠

أي يدعو أهل الجنة حين يرون نعمها وفضل الله تعالى عليهم بـ سبحان الله، وحين يرغبون في طلب شيء من الله تعالى كالطير والفاكهة مثلًا، ويرغبون فيها فإنهم يقولون: سبحانك اللّٰهم، فما إن سمع الملائكة ذلك حتى أحضروه إليهم، فكأن هذه الكلمة الواحدة تحل محل الأدعية كلها، ومن عادة أهل الدنيا أيضًا أن الضيف إذا أعجبه شيء، وأثنى عليه؛ فإن

المضيف الغيور يحاول أن يوفره للضيف.

فائدة: يسلم أهل الجنة بعضهم على بعضهم حين اللقاء، كما هو عادة المسلمين في الدنيا، ثم إن تسليم الملائكة على أهل الجنة؛ بل هدية التسليم من الله تعالى إليهم مما هو منصوص عليه في القرآن الكريم، قال تعالى: (سَـــلٰمٌ قَـــوْلًا مِّـــنْ رَّبٍّ رَّحِيْمٍ)[يس:٥٨]، وقال تعالى: (وَالْمَلٰٓئِكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ مِّنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) [الرعد:٢٣-٢٤].

فائدة: حين تزول الهموم والكدور الدنيوية بعد دخول الجنة، وينالون كل شيء يرغبون فيه بمجرد قولهم: سبحان الله، كان ختام كل دعاء منهم بـ(الحمد لله رب العالمين)، وهو أمر طبيعي.

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

نبَّه قبل هذا بآيتين على أن الذين يغفلون عن الله تعالى، ولايرجون لقاءه، مأواهم النار، وأراد في هذه الآية التنبيه على أن الله تعالى لايعجل أخذ أمثال هؤلاء المجرمين في الدنيا؛ بل يمهلهم، رغم أنهم يستعجلون أحيانًا العذاب على أنفسهم بكل وقاحة، فيقولون مثلا: (اللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ) [الأنفال:٣٢]، وأحيانًا يدعون على أنفسهم أو على أولادهم ونحو ذلك حين يضيقون ذرعًا من أحداث الدنيا، كما تؤكده التجارب، فلو أن الله تعالى عجَّل عليهم في حينه حسب دعائهم عذابًا أو سوءًا، مثل استعجالهم الخير، فإنهم لاينجون من شره لحظة واحدة، و ينقطع بهم أسباب الحياة على الفور، ولكن الله تعالى يؤجل ويمهل في الخير والشر حسب المصلحة و الحكمة، كي يتربى أصحاب الخير، ويعيل شر الفاسقين وهم في غفلة.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

أي يطلب الإنسان العذاب بكل وقاحة، ويطلب الشر بلسانه أولًا، ولكنه بلغ من الضعف و التفاهة أنه لايمسه شر حتى يفزع ويدعونا، فيدعو الله تعالى قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا مادامت المصيبة قائمة، وما إن زالت عنه حتى نسي كل شيء، فكأنه لم يكن على صلة بالله تعالى، ولم يبق إلا ما كان فيه أولا من الغرور والعنجهية وسكر الغفلة. وفي الحديث: اذكر الله في الرخاء يذكرك في الشدة. والمؤمن لايغفل عن الله تعالى أبدًا، فيصبر على الشدة ويشكر الله تعالى على الرخاء. وهذا ما لايوفق له إلا المؤمن .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا

ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾

أي ليس له أن يغفل إذا لم يتعجل العذاب عليه حسب دعائه، أو زالت المصيبة عنه، فإن عقوبة الظلم والكفر لابد أن يذوقها عاجلا أم آجلا. ومن سنة الله تعالى القديمة أن الناس إذا أصروا على الظلم والتكذيب بعد أن رأوا آيات الأنبياء والمرسلين الواضحة، ولم يستسلموا للإيمان بالله تعالى، فإن العذاب السماوي أهلكهم، ولابد أن يذوق المجرمون العقوبة بصورة أو بأخرى.

ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

أي أسكنكم في الأرض مكان السابقين، ليرى مدى تعرفكم على الخلق والمخلوق، وكيف تقفون من أنبياء الله تعالى؟ فإنكم تدانون كما تدينون، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ثم ذكر موقفهم من القرآن الكريم أو الرسل أو من الله تعالى.

وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾

كان كثير منهم يعجبهم مواعظ القرآن الكريم العامة، فإذا سمعوا الرد على عبادة الأصنام أو على عقائدهم وطقوسهم الخاصة استوحشوا منه، وعبسوا وبسروا، وقالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هلا أنزل ربك قرآنا آخر، ليس فيه هذه المعاني، ولا أقل من أن تُغير هذا الجزء الخاص بعبادة الأصنام ونحوها إذا كان لابد أن يستمر هذا القرآن نفسه. ولايُستبعد من الذين قسموا على أصنام الحجر صلاحيات الإله -لايُستبعد من عقولهم أن يعتبروا الرسولَ يملك مثل هذه التصرفات والصلاحيات، أو كان ذلك مجرد طعن واستهزاء بالنبي ﷺ. وعلى كل، فيأتي الجواب العلمي عنه لاحقًا.

فائدة: لايسع ملكًا أورسولًا أن يُدخل من عند نفسه تعديلا في الكلام الإلهي، ويغيره ولو فتيلًا. فإن واجب الرسول أن يتبع ما ينزل عليه من الوحي الإلهي من غير وكس ولا شطط، فهو خاضع للوحي الإلهي، لا أن الله تعالى تابع له، بحيث يستنزلُ الرسول ما تريدون من الوحي، ويعرضه عليكم، فإن أدنى التعديل والتبديل والتحريف في الوحي الإلهي معصية كبيرة، فأنى يقرَب عباد الله المعصومون الذين هم أشد الناس خوفًا من الله تعالى اقترافَ مثل هذه المعصية؟ وكأن قوله تعالى: (اِنِّيۡٓ اَخَافُ اِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّيۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيۡمٍ) [الأنفال:١٥] تعريض بمثل هذه المطالب الوقحة، أي عليكم أن تخافوا عذاب يوم عظيم وأنتم تقترفون هذه المعصية الشنيعة.

فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِقَ

وأثر هذه النَظرَة في تثبيت العقيدة وتقويم الخلق

بقلم: الدكتور/ محمد سلام مدكور(*)

أبدأ الكتابة بما ينبغي أن يبدأ به كل مؤمن داع إلى الإيمان، وهو بالتوجيه إلى العقيدة ودين الحق تثبيتًا للإيمان في نفس المؤمن، ونزعًا للزيغ ممن تراوده الشكوك، وإضاءة لمعالم الحقيقة لهداية الضال، ووجدت أن خير ما يهدي إلى ذلك ويبصر به هو أن ينظر الإنسان إلى نفسه من خلقه ليتعرف على أصله، ثم يتخذ له من ذلك عبرة، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وتذكرت توجيه الله سبحانه لخلقه بقوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١) وبقوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ (الطارق: ٥-٨) ويقول جل شأنه ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ (الزمر:٦) وقد تضطرني هذه النظرة إلى أن أبحث عن بدء التكوين الجنيني، وأن أمر بالأطوار التي مر بها الجنين في ضوء ما جاء في القرآن والسنة مقارنًا ذلك بما أثبته علم الأجنة، وعلم التشريح، وقد يجرنا الكلام في هذا إلى الكلام عن الصلة الوثيقة التي بين الإنسان وبين أمه الأرض، فإن من تأمل في الأرض وأسرارها ومحتوياتها، وربط بينها وبين طبيعة الإنسان وصفاته، وجد أن هناك توافقا عجيبا بين مواهب الأرض ومواهب الإنسان، فهما كالسالب والموجب، فإذا لم يتفاعل الإنسان بمواهبه مع مواهب الأرض تعطلت قواها، وفي الآية الكريمة التي يصور الله فيها دعوة صالح عليه السلام لقومه إلى عبادة الله عز وجل فيما يحكي الله عنه بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود:٦١) ففي هذه الآية إشارة إلى ذلك الارتباط بين الإنسان وأصله في الأرض، فالإنسان ناشئ من الأرض في خلقته الأولى، هو متغذ من الأرض بما يأكل من خيراتها ومزروعاتها، ومن الحيوان الذي نشأ ونما من تلك المزروعات.

ومع أن الإنسان من هذه الأرض فقد ميزه الله

(*) رئيس قسم الشريعة الإسلامية- كلية الحقوق جامعة القاهرة

عـن كـل مـا فيهـا بـأن جعلـه خليفـة في الأرض، ومسيطرًا على جميع عناصرها لتتحقق بذلك عمارتها، وتمتـد شـؤون الحيـاة فيهـا إلى أجـل مـسمى عنـده، فخضعت له بما فيها طوعا أو كرها بتوجيه من الله، واسـتخلافه للإنـسان في عـمارة الأرض، وبالتأمـل يبدو أن سر هذه الخلافة الإنسانية، وتمكين الإنسان من السيطرة على غيره من الكائنات في هذا الكوكب المعمور هو انفراد البشر بعنصر الإنسانية التي هي أمر زائد على طبيعته الحيوانية التي هي الجزء المـادي في مفهوم الإنسان، وهذه الإنسانية هي التي توصله إلى التعـرف عـلى مـا في الكـون مـن عجائـب وأسرار وتمكنه من التعرف على خالقه.

فالإنـسان في مادتـه تركيـب مـادي ككـل كـائن حيواني، وفي إنسانيته طاقة من نوع أرقى هي الروح التي هـي قـوام قـواه – المعنويـة، وقـد حـدثنا القـرآن بذلك أصدق حديث في آيات عدة تتمثل فيما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (ص:٧١-٧٢).

والواقع أن الخلق الأول الذي يدخل فيما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ (ق:١٥) هـو مبـدأ خلـق الإنـسان الـذي لا يـسير في نظام التطوير الذي جرت عليه سنة خلق الإنسان بعد ذلك، وهـو ذلـك البـدء البـديع الـذي امتن الله بـذكره في عـدة مناسـبات، كـما تـضمنت جملـة مـن الآيات الإشارة إلى ما في ذلك الإنسان من الناحيتين: المادية والروحية، والتنويه بشأنها تنويهًا ينم على ما في الإنسان من عظمة وما لـه من مكانة ممتازة بين المخلوقات، وخاصة بما حباه الله من تلك النفحة الربانية بتلك النفحة الروحية، فهي التي جعلت منه إنسانًا له ذلك الامتياز وتلك السيطرة العظيمة.

ولقد أمر الله الإنسان بأعمال الناحيتين وقضاء الحقين: حق الجسد وحق الروح إذ يقول: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (القـصص:٧٧) وفي هـذا التوجيـه الكـريم يتمثـل اعتـدال المـنهج الإلهـي القـويم الـذي يعلـق قلـب الإنـسان بآخرتـه، ويجعلـه يـستقبل المـوت بـنفس راضية مطمئنة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع قضاء لحقه المـادي؛ بل يحضه على ذلك ويكلفه إياه تكليفا حتى لا يتزهد في الدنيا الزهد الذي يهمل به الحياة ويعرض عن شؤونها.

وفي الحـق أن ذلـك الاتجـاه الروحـي متمثلًا في عبادة الله سبحانه نتيجة اتجاه فكري وجداني عميق إلى غاية روحية خالصة، ولا يتمكن من الوصول إليها من جهل حقيقة الكون الذي يعيش فيه. فكان

هذا النص الكريم المعجز: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١) ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:٥) موجها النفوس الإنسانية إلى النظر في آيات الله والتبصر بما فيها من عبر ومعارف توقف الإنسان عند حده وترده إلى وضعه ومرتبته.

ومن تأمل في الإنسان وتركيبه و وظائفه ومواهبه أدهشه ذلك الصنع البديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، ودله من الطريق المباشر على عظمة الخالق القدير، وأنه قادر على بعثه بعد الموت، كما تجلت قدرته في خلقه وإيجاده، وهذا قول الله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ (الحج:٥) على أن كل هذه المعاني التي يدركها الإنسان في نفسه وفيما يحف به من آيات الكون إن هي إلا وشل في محيط وغيض من فيض وجزيرة صغيرة في بحر لا نهاية له حيال تلك الآيات ووجاه تلك المعلومات التي استأثر بها خالق ذلك الكون الباهر العجيب، وما كان للبشرية أن تلمس هذه الحقائق التي أشار إليها القرآن عن خلق الإنسان ومراحل تطور الجنين لولا اختراع المجاهر (الميكروسكوبات) منذ ثلاثة قرون، ولولا ظهور علم التشريح وعلم الأجنة.

فهل يعقل مع هذا من يشك في عبوديته لله والإيمان برسالته؟ وإلا فمن أين هذا الإخبار الصادق الذي يصور في دقة مذهلة مراحل تكوين الجنين وهو أمر خفي يحيط به الغموض من كل جانب ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ (الزمر:٦) هي المشيمة داخل الرحم، والرحم داخل البطن، والبطن التي هي من جسم الأم، لا ينفذ إلى الجنين منها ضوء ولا ماء ولا هواء، ولو وصل إليه شيء من هذا لأنهى عليه وأودى بحياته، سبحانك ربي فأنت القادر الخالق المصور فأنت العليم البصير منك البدء وإليك المصير.

وكثيرًا ما دفع التخبط والحيرة في أمر خلق الإنسان وتطور مراحله جنينًا البعض قديمًا إلى الاعتراف بوجود قوة عليا مسؤولة عن خلق الحياة، فرأى فريق من العلماء أن المادة الحية (البروتوبلازم) لا تخضع في تفاعلها للقوانين العادية والرياضية الثابتة، ولكنها تتم بتدخل قوى خارجية غير عادية، لها هدف معلوم وسياسة مرسومة لإحداث هذه التفاعلات يوضح ذلك ما قاله أخناتون فرعون مصر الذي وجه

الناس إلى دين الله، وبين لهم ما في خلق الإنسان وتكوينه من دقة تدل على الخالق وقدرته.. يا مانح الحياة للصغير في بطن أمه متوليا شؤونه في الرحم، إنك تمنح القدرة على التنفس كي يبقى كل من تخلقه حيًا لحين خروجه من الرحم، وهذا أرسطو الفيلسوف المتقدم في العصور المتقدمة، ينتهي من دراسته لبيضة الدجاجة والتطورات التي تمر بها حتى يخرج منها الفرخ إلى أن هناك عنصرا حيويًّا يوجه نشاط المادة الحية لتحقيق أغراض خاصة، وهكذا حتى يكتشف أحد العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي، وفي سنة ١٨٣٨ على وجه التحديد أن الكائنات الحية تتكون من خلايا، وأن البيضة والحيوان المنوي خليتان مستقلتان. وهو ما يتفق مع قول الله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ..﴾ (الطارق:٥) أي من بين صلب الرجل وترائب المرأة أي عظمتي الصدر المتصلتين بالمبايض التي تفرز البويضة التي يتم تلقيحها بالحيوان المنوي الذي يفرزه الرجل والبينية في الآية تشير إلى أن الجنين يتكون من مجموع هذين الأمرين أي من النطفة الممتزجة التي يعبر عنها في ا لطب الحديث (بالبويضة الملقحة).

حقًا وصدقًا، وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله؛ ولكن الذين جحدوا به كذبوا بما لم يحيطوا به علمًا ولما يأتهم تأويله. فآيات الأجنة في القرآن من أهم الأدلة التي تثبت معجزة القرآن العلمية، فإن العلم لم يصل إلى الحقائق التي جاء بها القرآن إلا في قرون متأخرة، وها هو العلم في العصور المتأخرة يقرر أن الجنين عند اكتمال نموه يكون محاطًا بثلاثة أغشية صماء – كما قلنا – لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة، وهكذا بالنسبة لترتيب خلق الحواس، وبصمات الأصابع التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ (القيامه:٤) وقوله جل شأنه: ﴿.. شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا..﴾ (فصلت:٢٠-٢١).

تخيرت أن أكتب أول ما أكتب لقراء هذه المجلة في الآيات النفسية متلمسًا ما فيها من متع روحية، والمتع الروحية أسمى وأفضل من كل متع الحياة، وإنها خير علاج وأنجع دواء، فحياة الإنسان تبدأ قبل بروزه على وجه الأرض بالاستكناه في بطن أمه، ويختمها برحلة الاستكناه في بطن الأرض، والذي بينهما هو مرحلة السفر إلى المقر الأخير والمنتهى عند السميع البصير كما فهم ذلك الفلاسفة، ونوه به الإمام الغزالي.

وقد أعطى كثير من الباحثين في مختلف العصور حياة الإنسان على ظهور الأرض اهتمامهم،

فكتبوا في ذلك كثيرًا، كما أعطوا مرحلة النهاية من بدئها إلى ما شاء الله قسطًا غير قليل أيضًا، أما المرحلة الأولى - والإنسان جنين في بطن أمه - فهي التي رغبت في أن أتكلم عنها لما تؤدي إليه معرفتها من إيمان بالله صادق ويقين ثابت أنه الحق، وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن من تأمل أطوار الجنين العجيبة، وترتب كل منها على ما قبله تأملًا صادقًا كان جديرًا أن يكفر بطاغوت الماديين وما يقول به الجاحدون الملحدون.

والكلام عن خلق الإنسان في بطن أمه أمر قريب بعيد: قريب لملامسته لنا في أقرب شؤوننا، وفي حركتنا وسكوننا، فهذا الإنسان بدأ من نطفة خرجت نتيجة الشهوة التي ركبها الله في ا لإنسان، فكان الوجود الإنساني، وانتشر على الأرض يديرها ويعمرها ويصرف شؤونها بأمر الله، وبعيد لغفلة الناس عن تدبره والنظر فيه وإغفالهم لما فيه من عبر وعجائب تخر لها جباه الفلاسفة والعلماء والباحثين، وهو حري أن يكون موضع النظر فهو مما يكلف الناظر طاقة ومجهودا، وهو مما يملأ نفسه بالعلم والحكمة، ويدل على نفسه وربه.

والحق أن نظرة الإنسان إلى نفسه تتشعب في جهات عدة، ونواح مختلفة ترجع إلى ذاته وما يقوم به من أعراض وصفات كل ما فيها يدل على الله، وترشد إلى ما فيه من عظمة وقدرة، وهو في حقيقته حقل للنظر والتجارب ا لتي يعرف بها الفرق بين المخلوق والخالق، والكشف عن هذه الحقائق وتصويرها للناس خير هاد ومرشد للحق وموجه للإيمان الكامل بالله واليوم الآخر، ومتى اكتمل الإيمان بالله في نفوس الأفراد والجماعات صلح أمرهم، وقويت هممهم وعلا شأنهم، وزالت معالم الجريمة من بينهم، وأصبح المجتمع نقيا طاهرا.

والإنسان متى آمن كان حريا أن ينأى عن الشرور والآثام وأن يقبل على الخير ويبادر إلى الطاعات ويستفيد من دنياه لأخراه، فالفضائل الاجتماعية غالبًا ما تكون من آثار الإيمان بالله والبعث؛ إذ القلب متى عمر بالإيمان الصحيح تحول إلى طاقة من القوة لا تصدها الحياة ولا تقهرها الرجال ولا تمنعها الحوائل، وهو السبيل إلى التماسك بين الآخذين بحبله؛ لأنه يؤلف القلوب على الخير ويجمعها على البر، وما أحوجنا في مجتمعنا إلى هذا.

والإيمان حقًا هو سكينة النفس ا لقلقة، وهداية القلوب الضالة، ومنار ا لسالكين الحائرين، وأمان الخائفين، فهو المعين الفياض الذي تستمد منه الإرادة القوية سر قوتها؛ لأنه الأساس لجميع الفضائل...

* * *

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٥- المائدة: ٣-٦)

بقلم: **رئيس التحرير**

٣- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]

في الآية بدهيتان:

١- فإن قيل: مافائدة عطف (القلائد) على (الهدي) والمراد بالقلائد هي الهدي نفسه؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: إن المراد بالقلائد هي الهدي نفسه فوجه عطف القلائد على الهدي المبالغة في احترامه بحيث يحرم الاعتداء على قلادته بله ذاته، وهذا كقول أبي بكر: والله لو منعوني عِقالًا كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه. على أنّ القلائد ممّا ينتفع به؛ إذ كان أهل مكة يتّخذون من القلائد نعالًا لفقرائهم، كما كانوا ينتفعون بجلال البدن، وهي شُقق من ثياب توضع على كفل البدنة؛ فيتّخذون منها قُمصًا لهم وأزُرا، فلذلك كان النهي عن إحلالها كالنهي عن إحلال الهدي؛ لأنّ في ذلك تعطيل مصالح سكان الحرم الذين استجاب الله فيهم دعوة إبراهيم إذ قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (إبراهيم:٣٧) و قال تعالى: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ) (المائدة:٩٧).

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ (النور:٣١) فنهى عن إبداء الزينة مبالغةً في النهي عن إبداء مواضعها. ذكره الرازي والزمخشري، وابن عاشور، والثعالبي والبيضاوي، وأبو السعود، و أبوحيان، والشوكاني والآلوسي[1].

الثاني: المراد منه: الهدي ذو القلائد، وعطفت على الهدي مبالغةً في التوصية بها لأنها أشرف الهدي كقول: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ﴾ (البقرة:٩٨) كأنه قيل: والقلائد منها خصوصًا، ذكره الطبري و الزمخشري، والرازي، والبغوي، والثعالبي

والبيضـاوي، وابن الجوزي والشوكاني - و رجحه - والآلوسي و أبوحيان[٢].

الثالــث: قــال بعــضهم: كانــت العــرب في الجاهلية مواظبين على المحاربة إلا في الأشهر الحرم، فمن وجد في غير هذه الأشهر الحرم أصيب منه، إلا أن يكون مشعرًا بدنة أو بقرة من لحاء شجرالحرم، أومحرما بعمرة إلى البيت، فحينئذٍ لا يتعرض له، فأمر الله المسلمين بتقرير هذا المعنى. ذكره الرازي والبغوي، والطبري، وابن كثير، وابن الجوزي، و الشوكاني والآلوسي وأبو حيان[٣].

وكان أهل الجاهلية يعيبون من قتل مقلدا، ومنه قوله:

أَلَمْ تَقْتُلا الحِرْجَيْنِ إذْ أعْوَرَاكما

يُمِرَّانِ بالأيْدِي اللِّحاءَ المُضَفَّرَا[٤].

الرابع: قال مطرّف بن الشِّخّير: هي القلائد نفسها، وذلك أنّ المشركين كانوا يأخذون من لِحَاءِ شجرمكة ويُقلِّدونها، فنُهواعن نزع شجرها. وعن أخذ القلائد من شجرالحرم. وفي الحديث: «لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها». ذكره الطبري، والبغوي والنسفي، وأبوحيان، وابن الجوزي، والألوسي[٥].

٢- فإن قيل: البر والتقوى لفظان بمعنى واحد، فما فائدة إعادة ذكره؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: كرّر باختلاف اللفظ تأكيدًا، ومبالغةً؛ إذ كل بِرّ تقوى وكل تقوى برّ. ذكره القرطبي وتعقبه ابن عطية[٦].

الثاني: ماقاله ابن عطية من أن اعتبارهما بمعنى فيه تسامح ما؛ فإن العرف في دلالة هذين اللفظين أن البِرّ يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوّز. ذكره القرطبي[٧].

الثالث: قال الماورديّ: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبِرّ وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالىٰ، وفي البِرّ رضا الناس، ومن جمع بين رضاالله تعالىٰ ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته. ذكره القرطبي[٨].

الرابع: قال الألوسي: اختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقًا، وبالتقوى اجتناب الهوى لتصير الآية من جوامع الكلم وتكون تذييلًا للكلام، فيدخل في البروالتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج:٢٣)[٩].

٤- قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣].

١- فإن قلت: لواكتفى بجملة واحدة وقيل: (فإياي فاخشون) لكفى فما فائدة العدول إلى جملتين؟

أثار هذا السؤال ابن عاشورو أجاب عنه فقال: وعدل إلى جملتي نفي وإثبات؛ لأنّ مفاد كلتا الجملتين مقصود، فلا يحسن طيّ إحداهما. وهذا من الدواعي الصارفة عن صيغة الحصر إلى الإتيان بصيغتي إثبات ونفي، كقول السموأل أو عبد الملك ابن عبد الرحيم الحارثيّ:

تَسيل على حدّ الظّبَاتِ نفوسنا

ولَيْسَتْ على غيرالظُبات تسيل

ونظيره قوله الآتي: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ (المائدة:٤٤)(١٠).

٢- فإن قيل: من البدهي أن الدين كامل غير ناقص، فما فائدة قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ حيث إنه يدلّ على أن الدين كان غيركامل في وقت من الأوقات، وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شَهدوا بَدْرًا والحُدَيبية وبايعوارسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ البيعتين جميعًا، وبَذَلوا أنفسهم لِلَّهِ مع عظيم ما حَلّ بهم من أنواع المِحَن ماتوا على دين ناقص، وأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في ذلك كان يدعو الناس إلى دِين ناقص، ومعلوم أن النَّقْص عَيْب، ودين الله تعالىٰ قِيم، كما قال تعالىٰ: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ (الأنعام:١٦١)؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: قال القرطبي: الجواب أن يُقال له: لم قلت: إن كلّ نقص فهو عَيْب وما دليلك عليه؟ ثم يُقال له: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيْبا، ونقصان صلاة المسافر أهو عَيْب لها، ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ﴾ (فاطر:١١) أهو عَيْب له، ونُقْصان أيام الحيض عن المعهود، ونُقْصان أيام الحمل، ونقصان المال بسرقة أوحرِيق أو غَرَق إذا لم يَفْتقر صاحبه، فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدّين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالىٰ هذه ليست بشَيْن ولاعيب، وما أنكرت أن معنى قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ يخرج على وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد بلّغته أقصى الحدّ الذي كان له عندي فيما قضيته وقدّرته، وذلك لايوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نُقْصان عيب، لكنه يُوصف بنقصان مُقَيّد فيقال له: إنه كان ناقصا عما كان عند الله تعالىٰ أنه مُلْحِقه به وضَامُّه إليه؛

كالرجل يُبلغه الله مئة سنة فيقال: أكمل الله عمره؛ ولا يجب عن ذلك أن يكون عُمره حين كان ابن ستّين كان ناقصا نقص قصور وخلل؛ فإن النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يقول: «من عمّره الله ستّين سنة فقد أعذر إليه في العُمر»(١١). ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيّد فيقال: كان ناقصا عما كان عند الله تعالىٰ أنه مُبلغه إياه ومُعمّره إليه. وقد بلغ الله بالظهر و العصر والعشاء أربع ركعات؛ فلو قيل عند ذلك: أكملها لكان الكلام صحيحا، ولا يجب عن ذلك أنها كانت حين كانت ركعتين ناقصة قصورو خلَلَ؛ ولو قيل: كانت ناقصة عما عند الله أنه ضَامُّه إليها و زائده عليها لكان ذلك صحيحًا فهكذا، هذا في شرائع الإسلام وما كان شرع منها شيئًا فشيئًا إلى أن أنهى الله الدِّين منتهاه الذي كان له عنده. و الله أعلم.

والوجه الآخر: أنه أراد بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ أنه وفقهم للحجّ الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدِّين غيره، فحجّوا؛ فاستجمع لهم الدِّين أداء لأركانه وقيامًا بفرائضه؛ فإنه يقول عليه السَّلام: «بُنِيَ الإسلام على خَمْس» الحديثَ(١٢). وقد كانوا تشهّدوا وصلّوا وزكّوا و صاموا وجاهدوا واعتمروا ولم يكونوا حجّوا؛ فلما حجّوا ذلك اليوم مع النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنزل الله تعالىٰ وهم بالموقف عَشِيّة عرفة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣] فإنما أراد أكمل وَضْعَه لهم؛ وفي ذلك دلالة على أن الطاعات كلها دين وإيمان وإسلام. وروي ذلك عن سعيد بن جبير وقتادة واختاره الطبري(١٣).

الثاني: وهذا كما تقول: تم لي الملك إذا كفيت ما تخافه، وإلى ذلك ذهب الزجاج. ذكره الآلوسي(١٤).

٣- فإن قلت: مفاد جملة (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ) وجملة (وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي) واحد، فما فائدة هذا العطف؟

فالجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الجملتين مفادهما ليس واحدا؛ إذ المراد من تمام المنة منة أخرى غير إكمال الدين، وهي نعمة النصر، والأخوّة، وما نالوه من المغانم، ومن جملتها إكمال الدين، فهو عطف عامّ على خاصّ. ذكره الزمخشري، وابن عاشور والنسفي، والطبري(١٥).

وتعقبه الرازي فقال: فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد بإتمام النعمة جعلهم قاهرين لأعدائهم؟ قلنا: قد عرف بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَيۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ فحمل هذه الآية عليه أيضًا يكون تكريرا(١٦).

الوجه الثاني: أن المراد بإتمام النعمة جعل هذا

الشرع بحيث لايتطرق إليه نسخ. إذًا مفادهما ليس واحدا. ذكره الرازي وتعقبه فقال: هذا لايجوز؛ لأن إبقاء هذا الدين لما كان إتمامًا للنعمة وجب أن يكون أصل هذا الدين نعمة لا محالة، فثبت أن دين الإسلام نعمة[١٧]. وذكره – أيضا- البيضاوي[١٨].

الوجه الثالث: جوّزوا أن يكون المراد من النعمة الدّين، وإتمامها هوإكمال الدين، فيكون مفاد الجملتين واحدا، و يكون العطف لمجرّد المغايرة في صفات الذات، ليفيد أنّ الدين نعمة وأنّ إكماله إتمام للنعمة؛ فهذا العطف كالذي في قول الشاعر أنشده الفرّاء في «معاني القرآن»:

إلى الملك القرم وابنِ الهما

م وليث الكتيبة في المُزْدَحَمْ

ذكره ابن عاشوروالزمخشري[١٩].

وقال الرازي: إنما قلنا: إن الإسلام نعمة لوجهين: الأول: الكلمة المشهورة على لسان الأمة وهي قولهم: الحمد لله على نعمة الإسلام. الثاني: أنه تعالى قال في هذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ ذكر لفظ النعمة مبهمة، والظاهرأن المراد بهذه النعمة ما تقدم ذكره وهو الدين[٢٠].

الوجه الرابع: أن المراد: أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣] بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم. ذكره الزمخشري، والنسفي[٢١].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [المائدة:٤]

فإن فإن قلت: ما فائدة هذه الحال (مُكَلِّبِينَ)، وقد استغنى عنها بـ(عَلَّمْتُم)؟

الأول: أجاب عنه الزمخشري فقال: فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح نحريرا في علمه مدرّبًا فيه، موصوفًا بالتكليب. و ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف. وفيه فائدة جليلة، وهي أن على كلّ آخذ علمًا أن لا يأخذهُ إلا من أقتلِ أهله علما وأنحرهم درايةً وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل، فكم من آخذ عن غير متقن، قد ضيع أيامه وعضّ عند لقاء النحارير أنامله ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من علم التكليب، لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل. أو مما عرَّفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وانزجاره بزجره. وانصرافه بدعائه، و إمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه. و ذكره الرازي وأبوحيان، وابن كثيرو

الشوكاني، و النسفي وأبوالسعود(٢٢).

الثـــاني: فائـــدتها المبالغـــة في التعلـــيم ﴿تُعَلِّمُـــونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف، ﴿مِمَّـــا عَلَّمَكُـــمُ ٱللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى أومكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ذكره البيضاوي(٢٣).

الثالث: قال ابن عاشور و﴿مُكَلِّبِـــينَ﴾ حال من ضمير ﴿عَلَّمْتُم﴾ مبيّنة لنوع التعليم وهو تعليم المكلِّب، والمكلِّب - بكسر اللام - بصيغة اسم الفاعل مُعلّم الكلاب، يقال: مكلِّب، ويقال: كَلاَّب. فـ﴿مُكَلِّبِـــينَ﴾ وصف مشتقّ من الاسم الجامد اشتقّ من اسم الكلب جريًا على الغالب في صيد الجوارح، ولذلك فوقوعه حالًا من ضمير ﴿عَلَّمْتُم﴾ ليس مخصّصا للعموم الذي أفاده قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ فهذا العموم يشمل غير الكلاب من فُهود وبُزَاة. وخالف في ذلك ابن عمر، حكى عنه ابنُ المنذر أنّه قصر إباحة أكل ما قتله الجارح على صيد الكلاب لقوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ قال: فأمّا ما يصاد به من البزاةِ وغيرها من الطير فما أدركتَ ذكاته فذكِّه فهو لك حلال وإلاّ فلا تَطْعَمْه. وهذا أيضًا قول الضحّاك والسُدّي(٢٤).

٦- قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَـوْمَ أُحِـلَّ لَكُـمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُـمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْـصَنَٰتُ مِـنَ ٱلَّذِيـنَ أُوتُـواْ ٱلْكِتَٰـبَ مِـن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْـصِنِينَ غَـيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِـذِىٓ أَخْـدَانٍ ۗ وَمَـن يَكْفُـرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُـوَ فِى ٱلْـَٔاخِـرَةِ مِـنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. [المائدة:٥].

في الآية بدهيتان:

١- فإن قلت: قد نص على حل الطيبات في الآية السالفة فماوجه إعادة ذكره؟

فالجواب من وجوه:

الأول: أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أنه أحل الطيبات، وكان المقصود من ذكره الإخبار عن هذا الحكم، ثم أعاد ذكره في هذه الآية، والغرض من ذكره أنه قال: ﴿ٱلْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة في كل ما يتعلق بالدين، فكذلك أتم النعمة في كل ما يتعلق بالدنيا، ومنها إحلال الطيبات، والغرض من الإعادة رعاية هذه النكتة. ذكره الرازي، وأبوحيان(٢٥).

الثاني: كرره تأكيدا للمنة. ذكره النسفي وابن الجوزي والشوكاني والقرطبي(٢٦).

الثالث: فأعيدَ ليُبنى عليه قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ

أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾. ذكره ابن عاشور(٢٧).

٢- فإن قلت: من البدهي أنه إذا حل طعامهم للمسلمين حل طعام المسلمين لهم، وكيف شرع لهم حِلّ طعامنا وهم كفار ليسوا من أهل الشرع فما فائدة قوله: (وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ)؟

فالجواب من وجوه:

الأول: قال ابن عاشور: وقوله: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ﴾ لم يعرّج المفسّرون على بيان المناسبة بذكر ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ﴾. والذي أراه أنّ الله تعالى نبّهنا بهذا إلى التيسير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنا أن نُطعمهم طعَامنا، فعُلم من هذين الحكمين أنّ علّة الرخصة في تناولنا طعامهم هو الحاجة إلى مخالطتهم(٢٨).

الثاني: قال أبوحيان: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ﴾ أي: ذبائحكم وهذه رخصة للمسلمين لا لأهل الكتاب. لما كان الأمر يقتضي أن شيئا شرعت لنا فيه التذكية، ينبغي لنا أن نحميه منهم، فرخص لنا في ذلك رفعًا للمشقة بحسب التجاوز، فلا علينا بأس أن نطعمهم ولو كان حراما عليهم طعام المؤمنين، لما ساغ للمؤمنين إطعامهم. وصار المعنى: أنه أحل لكم أكل طعامهم، وأحل لكم أن تطعموهم من طعامكم، والحل الحلال، ويقال في الإتباع: «هذا حل بل». وذكره البغوي، والزمخشري، والنسفي، و الثعالبي، والبيضاوي، والرازي(٢٩).

الثالث: وذلك أيضًا تمهيد لقوله بعد: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنّ ذلك يقتضي شدّة المخالطة معهم لتزوّج نسائهم والمصَاهرة معهم(٣٠).

الرابع: أن الفائدة في ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة في الجانبين، وإباحة الذبائح كانت حاصلة في الجانبين، لا جرم ذكر الله تعالى ذلك تنبيهًا على التمييز بين النوعين. ذكره الرازي والبغوي(٣١).

الخامس: قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡۖ﴾ [المائدة:٥] أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم، اللّهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به، من الأكل من كل طعام، ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى، أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة و المجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول، حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذلك بذلك، فأما الحديث الذي فيه «لا تصحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي» فمحمول على الندب و الاستحباب، والله أعلم. وذكره الشوكاني(٣٢).

الــسادس: أي وذبــائحكم لهــم حــلال، فــاذا اشتروا منا شيئا كان الثمن لنا حلالا، واللحم لهم حلالا. ذكره ابن الجوزي، والقرطبي(٣٣).

* * *

الهوامش:

(١) ابن عاشور؛ الرازي١١/ ٢٨٠؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/ ٢٨٩؛ أبوالسعود ٣/ ٥،٦؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/ ٥٣.

(٢) الطبري ٦/ ٨٣؛ الرازي ١١/ ٢٨٠؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/ ٢٨٩؛ أبوالسعود ٣/ ٥،٦؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/ ٥٣؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٣) الطبري ٦/ ٨٣؛ الرازي١١/ ٢٨٠؛ البغوي في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ الآلوسي ٦/ ٥٣؛ أبوحيان في تفسير الآية.

(٤) الطبري٦/ ٣٨. والحِرجان: المقتولان كذلك. ومعنى قوله: أعوراكما: أمكناكما من عورتهما.

(٥) الطبري ٦/ ٨٣؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ البغوي في تفسيرالآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ الآلوسي٦/ ٥٣.

(٦) القرطبي٦/ ٤٦.

(٧) القرطبي٦/ ٤٦.

(٨) القرطبي٦/ ٤٦.

(٩) الآلوسي٦/ ٥٩.

(١٠) ابن عاشورفي تفسير الآية.

(١١) الحديث: رواه البخاري في الصحيح في الرقاق باب من بلغ ستين سنةً فقد أعذرَ الله إليه في العُمر [٦٢٧٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أعذرَ الله إلى امرىء أَخَّرَ أجَله حتى بَلَّغَهُ ستين سنة».

(١٢) الحديث: رواه البخاري في الإيمان باب الإيمان وقولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بُنَي الإِسلامُ عَلى خَمْس» ١/ ١١[٨].

(١٣) القرطبي ٦/ ٦٠؛ الطبري ٦/ ٥٤؛ الآلوسي٦/ ٦٣.

(١٤) الآلوسي٦/ ٦٣.

(١٥) الزمخشري في تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الطبري ٦/ ٥٩.

(١٦) الرازي١١/ ٢٨٨.

(١٧) الرازي١١/ ٢٨٨

(١٨) البيضاوي في تفسير الآية؛

(١٩) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛

(٢٠) الرازي١١/ ٢٨٨

(٢١) الزمخشري في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية.

(٢٢) الزمخشري في تفسير الآية؛ الرازي ١١/ ٢٩٣؛ أبوحيان في تفسير الأية؛ ابن كثير ٣/ ٣٠؛ النسفي في تفسير الآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٣/ ٩.

(٢٣) البيضاوي ٢/ ٢٩٢.

(٢٤) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢٥) الرازي ١١/ ٢٩٣؛أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٦) النسفي في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/ ٧٥.

(٢٧) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢٨) ابن عاشور في تفسيرالآية.

(٢٩) أبوحيان في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/ ٢٩٣؛ الرازي ١١/ ٢٩٣.

(٣٠) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣١) الرازي ١١/ ٢٩٣؛ البغوي في تفسيرالآية.

(٣٢) ابن كثير ٣/ ٧٣؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(٣٣) ابن الجوزي في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/ ٧٨.

أثر الإحسان في فريضة الحج

بقلم: د. عبد الوهاب القرش(*)

الإحسان هو الإتقان، أو بلغة اليوم هي الجودة، وهي أداء العمل بإحكام، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل:٨٨). يقول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»(رواه مسلم)، حتى في العبادات، ومنها الحج.

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، يحافظ المسلم على أدائه امتثالًا لأمر الله، راغبًا في الأجر والثواب، طامعًا أن يعود من رحلته بحج مبرور، يعود فيه من الذنوب كيوم ولدته أمه.

فكيف يحقق المسلم الإحسان في الحج؟ وما أثر هذا الركن العظيم في الدعوة إلى الله عز وجل؟

أمر الله بالإحسان في الحج، بأن يحج الإنسان خالصًا لله مع مراعاة آدابه، مجتنبًا اللهو والرفث والفسوق والجدال، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة:١٩٧) وكما جاء في الحديث: عن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (أخرجه البخاري).

وسماه في حديث آخر حجًا مبرورًا جزاءه الجنة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ» (أخرجه البخاري).

وقال النووي في شرحه: قَوْله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَالْحَجّ المَبْرُور لَيْسَ لَهُ جَزَاء إِلَّا الْجَنَّة» الْأَصَحّ الْأَشْهَر: أَنَّ المَبْرُور هُوَ الَّذِي لَا يُخَالِطهُ إِثْم، مَأْخُوذ مِن الْبِرّ وَهُوَ الطَّاعَة، وَقِيلَ: هُوَ المَقْبُول، وَمِنْ عَلَامَة الْقَبُول أَنْ يَرْجِع خَيْرًا مِمَّا كَانَ، وَلَا يُعَاوِد المَعَاصِي، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لَا رِيَاء فِيهِ، وَقِيلَ: الَّذِي لَا يُعْقِبهُ مَعْصِيَة، وَهُمَا دَاخِلَانِ فِيمَا قَبْلهمَا، وَمَعْنَى (لَيْسَ لَهُ جَزَاء إِلَّا الْجَنَّة): أَنَّهُ لَا يَقْتَصِر لِصَاحِبِهِ مِن الْجَزَاء عَلَى تَكْفِير بَعْض ذُنُوبه، بَلْ لَا بُدّ أَنْ يَدْخُل الْجَنَّة. وَ

(*) الباحث في العلوم الإنسانية .

الله أَعْلَم» (أخرجه مسلم).

وليحرص الإنسان على الاقتداء بالنبي ﷺ في هذا النسك وغيره من المناسك، وكان النبي ﷺ يردد هذه الكلمة بكثرة «خذوا عني مناسككم» كما جاء في الحديث عن جَابِررضي الله عنه يَقُولُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ» (أخرجه مسلم).

وفي مسند أحمد عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «دَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَأَوْضَعَ فِي وَادِي مُحَسِّرٍ فَأَرَاهُمْ مِثْلَ حَصَى الْخَذْفِ وَأَمَرَهُمْ بِالسَّكِينَةِ وَقَالَ: لِتَأْخُذْ أُمَّتِي مَنْسَكَهَا فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاهُمْ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» (أخرجه أحمد).

بل التلبية التي يرفع بها الإنسان في الحج هي تدل على الإحسان مع الله بأن يخلص له التوحيد، ويجتنب الشرك، فلنمعن النظر في مفرادات التلبية التي علّمها النبي ﷺ أمته: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ الله ﷺ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ» (أخرجه البخاري).

فهذه الكلمات تحمل بين جوانبها إقرارًا تامًا بالعبودية لله تعالى وتوحيده سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله عز وجل، فهذا الورد كله إثبات التوحيد لله عز وجل، ونفي النقيض عنه، وهذا من أعظم الإحسان مع الله عز وجل، بخلاف ما كان المشركون يفعلونه من الشرك بالله عز وجل حتى في كلمات التلبية كما روى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ. فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ» (أخرجه مسلم).

قال الإمام النووي: قَوْله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (قَدْ قَدْ) قَالَ الْقَاضِي: رُوِيَ بِإِسْكَانِ الدَّال وَكَسْرهَا مَعَ التَّنْوِين، وَمَعْنَاهُ: كَفَاكُمْ هَذَا الْكَلَام فَاقْتَصِرُوا عَلَيْهِ وَلَا تَزِيدُوا، وَهُنَا اِنْتَهَى كَلَام النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ عَادَ الرَّاوِي إِلَى حِكَايَة كَلَام الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: (إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك... إِلَى آخِره) مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ هَذِهِ الْجُمْلَة، وَكَانَ النَّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُول: اِقْتَصِرُوا عَلَى قَوْلكُمْ: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيك لَك). وَ الله أَعْلَم(شرح مسلم).

وعند تأملي لآيات الحج وجدت أن هناك رابطًا عظيمًا بين التوحيد ونفي الشرك وبين الحج، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج:٢٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧).

فنصل إلى قناعة تامة بأن الحج إلى بيت الله

الحرام بجميع أقواله وأعماله وشعائره - كأي عبادة أخرى - تنطلق من (لا إله إلا الله) لتحقيق تعميق (لا إله إلا الله) في النفوس بجلاء ووضوح، ابتداء من إقامة بيت الله الحرام، وبناء الكعبة المشرفة، ثم تشريع الحج إلى هذا البيت العظيم، وهكذا في كل أعمال الحج؛ حيث لا يخلو نسك أو ركن منه إلا وفيه علامة أو إشارة إلى توحيد الخالق عز وجل قولًا أو عملًا، سواء كان هذا التوحيد في الربوبية، أو الألوهيـة، أو في الأسـماء والـصفات، وذلـك لأهميته العظيمة في حياة الإنسان، وهي الحقيقة التي أرسل الله الرسل والأنبياء لترسيخها في نفوس الناس والعمل بمقتضياتها، وإزالة كل ما هو لغير الله من هذه النفوس من عبادةٍ للأحجار، أو الأشجار، أو الكواكب، أو البشر، أو القبور، أو الأضرحة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦) وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف:١١٠)، وغيرها من الآيات كثيرة جدًا، حتى قال بعض العلماء: إن غالبية سور القرآن تتضمن نوعي التوحيد، لذا فليربط المسلم بين أول حياته وآخرها، وأول أعماله وآخرها بتوحيد الله سبحانه، يبدأ حياته موحدًا ويعيش موحدًا ويموت موحدًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

إن الله عز وجل قد شرع الحج لمعان سامية، وليس لمجرد السياحة والتنزه، فإذا ما حقق الإنسان هذه المعاني فإنه بذلك يكون قد وصل إلى مرتبة الإحسان في هذه العبادة العظيمة، وكان لها أعظم الأثر في نفسه أولًا، وفي غيره من عباد الله ثانيًا، مما ينعكس أثره بداهة وبصورة تلقائية في الدعوة إلى الله؛ ففريضة الحج زاد من التقوى يتزود به الإنسان ليستشعر دروسه وعبره في دنياه، ويبتغي به الثواب والأجر من الله في أخراه.

ومن مظاهر هذا الإحسان في تلك العبادة العظيمة وأثره في الدعوة إلى الله:

الإحسان في النفقة:

إن من أجلّ الضوابط التي ينبغي أن تتوافر في هذه العبادة الجليلة حتى تكون مقبولة مبرورة أن يكون الزاد من الحلال الطيب، والمطعم من الحلال، وهي وصية الله لعباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: «فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولًا وعملًا ودلالةً ونصحًا، فجزاهم الله عن العباد خيرًا» ثم نقل عن الحسن البصري: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قال: أما والله

مـا أُمِـرُوا بأصـفركم ولا أحمـركم، ولا حلـوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وعن سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: الحلال».

ويرشدنا إلى هذا الفهم أيضًا حديث سيدنا أبي هريـرة عـن رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الـذي رواه مسلم: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمـر المـؤمنين بـما أمـر بـه المرسـلين، فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (البقرة:١٧٢) ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك».

يقول القرطبي في تفسيره: «وهذا استفهام على جهة الاستبعاد من قبول دعاء من هذه صفته، فإن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط في الداعي، وفي الدعاء، وفي الشيء المدعو به، فمن شرط الداعي أن يكون عالما بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه، وأن يكون مجتنبا لأكل الحرام، وألا يمل من الدعاء...».

فمـن أراد الوقـوف بـين يـدي ربـه فعليـه أن يخلص نيته، وأن يطهر مطعمه وملبسه، وأن يطهر قلبه، وأن يترفع عن الكسب الخبيث، حتى يصير أهلا لمثل هذه العبادة العظيمة، ومن ثم يرجع من رحلته بلا ذنب، كما جاء إلى الدنيا بصحيفة بيضاء لم تكتب فيها سيئة واحدة.

تعظيم البيــت:

ومـن جوانـب الإحسان في أداء هـذه الـشعيرة العظيمـة إذا وصـل العبـد إلى بيـت الله أن يدخلـه منكسرًا خاشعًا لله عز وجل، قد علاه الخضوع والذلـة، وتوشـح بالـسكينة والوقـار؛ فـإن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنـدما دخـل البيـت يـوم الفـتح الأعظم، دخلـه ظافـرًا منتصرًا عزيزًا مؤيدًا بمدد من الله، ولكنه تناسى هذا كله، وتذكر أنه في بيت الله الحـرام، أول بيـت وضـع للنـاس لعبـادة ربهـم فـدخل صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مطأطئًـا رأسـه، ذلـة لله، وخـضوعًا لمهابتـه وجلالـه، حتـى قيـل: إن لحيتـه الـشريفـة كـادت أن تمـس قربـوس سرجـه، فينبغـي عـلى كـل داخـل أن يقتـدي بـه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يظهر في هذا الموقف إلا الخضوع لربه، والتذلل له في بيته الحرام الذي توجهت إليه القلوب، وجعله مثابة للناس وأمنًا.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج:٢٥) يقول الشيخ السعدي في تفسيره: «فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب

العبد عليه إلا بعمل الظلم... وفي هذه الآية وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها». ويعلق صاحب الظلال على هذه الآية: «ولقد كان هذا المنهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقًا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام يلقى فيها السلاح، ويأمن فيها المتخاصمون، وتحقن فيها الدماء، ويجد كل أحد فيها مأواه، لا تفضلًا من أحد، ولكن حقًا يتساوى فيه الجميع».

الإحسان في السلوك العام:

لما كان الحج تجردًا لله عز وجل من كل شيء، فالمسلم عندما يخلع ثيابه وزينته التي كان يتزيا بها أمام الناس ليرتدي قطعتين من القماش واحدة (الإزار) على نصفه الأسفل، والأخرى (الرداء) على نصفه الأعلى مما دون رأسه، يستوي فيه كل الناس، لا فرق بين غني وفقير ولا رئيس ومرؤوس، فإن هذه الهيئة تذكرهم أولًا بأنهم خلعوا كل ما يتعلق بالدنيا وزينتها، وكل ما يميز جنسياتهم أو مستوياتهم العلمية، أو طبقاتهم الاجتماعية، تركوا كل هذا مخلصين لله، خالعين الدنيا وثيابها وزينتها وملقين بها خلف ظهورهم، ومتجردين عن كل ما يشغلهم عن الله وذكره والإخلاص له. هذا بجانب أنهم بتساويهم في هذا اللباس فإنهم يتذكرون به تساويهم في لباس آخر أشبه ما يكون بقطعتي القماش اللتين تواري سوآتهما في هذا الموقف المهيب، ألا وهو الكفن. فإذا تجرد الحاج من لباسه ولبس الإحرام تذكر الموت الذي ستأتي ساعته حتمًا، فتنتهي به أعمال العبد في الحياة الدنيا، وتبدأ عنده مرحلة الحساب في الحياة الآخرة، ولذا كان أحد أركان الإحسان في هذه الشعيرة الجلية، هو البعد عن كل ملذات الدنيا وإن كانت مباحة؛ مما حرمه الله عز وجل على المحرم فعله، والاشتغال بالتقرب إليه تعالى بأنواع الأعمال الصالحة، والابتعاد عن المعاصي، ليس هذا فحسب؛ بل الابتعاد عن كل ما يذكره بمتع الدنيا وزينتها، من مثل الرفث إلى النساء والطيب ولبس المخيط... إلخ، وهذا التجرد والخلوص، والبعد عما يشغله عن الآخرة هو الزاد الذي ذكره الله تعالى في كتابه وأمر به عباده، فلا بد للمسلم أن يستمع إلى كلام ربه، ويتزود منه في رحلته إلى الدار الآخرة.

يقول تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة:١٩٧).

فالرفث المنهي عنه هنا هو ذكر الجماع ودواعيه، وما يتصل به من قول أو فعل. والجدال: المماراة والمشادة حتى يغضب الرجل صاحبه. والفسوق: إتيان المعاصي سواء في ذلك كبيرها وصغيرها. والنهي عن هذه السلوكيات يشير إلى

تــرك كــل مــا ينــافي التجــرد لله في هــذه الأيــام المعدودات، والسمو بالنفس على الغرائز الطينية، والتأدب الكامل الذي يجب على كل مسلم دخل بيت الله الحرام».

يقول أبو جعفر الطبري: «أي لا يفعل ما نهاه الله عن فعله في حال إحرامه، ولا يخرج عن طاعة الله في إحرامه. وقد علمنا أن الله جل ثناؤه قد حرم معاصيه على كل أحد، محرمًا كان أو غير محرم، وكذلك حرم التنابز بالألقاب في حال الإحرام وغيرها بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ (الحجرات:١١) وحرم على المسلم سباب أخيه في كل حال، فرض الحج أو لم يفرضه، فإذ كان ذلك كذلك، فلا شك أن الذي نهى الله عنه العبد من الفسوق في حال إحرامه وفرضه الحج، هو ما لم يكن فسوقا في حال إحلاله وقبل إحرامه بحجه، كما أن «الرفث» الذي نهاه عنه في حال فرضه الحج، هو الذي كان له مطلقًا قبل إحرامه؛ لأنه لا معنى لأن يقال فيما قد حرم الله على خلقه في كل الأحوال: لا يفعلن أحدكم في حال الإحرام ما هو حرام عليه فعله في كل حال؛ لأن خصوص حال الإحرام به لا وجه له، وقد عم به جميع الأحوال من الإحلال والإحرام. فإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الذي نهي عنه المحرم من «الفسوق» فخص به حال إحرامه... فمن فرض الحج في أشهر الحج فأحرم فيهن، فلا يرفث عند النساء فيصرح لهن بجماعهن، ولا يجامعهن، ولا يفسق بإتيان ما نهاه الله في حال إحرامه بحجه من قتل صيد، وأخذ شعر، وقلم ظفر، وغير ذلك مما حرم الله عليه فعله وهو محرم».

يقول القرطبي: «قلت: الحج المبرور هو الذي لم يعص الله سبحانه فيه». ومن علامات بره أن يقبل الإنسان بعده على طاعة ربه، مقلعًا عن المعاصي، ولذا ورد عن الإمام الحسن البصري: «الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة».

فإذا ما حقق الإنسان هذه الأخلاق وتجرد لله عز وجل، واشتغل بطاعته، وابتعد عن معصيته، وصل إلى مرتبة الإحسان في هذه العبادة وصدق فيه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (أخرجه البخاري). وهذا هو الحج المبرور الذي قال عنه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

ويدخل تحت أعمال الإحسان في السلوك العام في الحج، عدم الزحام على استلام الحجر الأسود لما في ذلك من الاضطراب الذي يؤدي إلى حدوث كوارث إنسانية وضحايا بشرية في هذه المنطقة، فالمسلم مأمور بأن يستلم الحجر إن تيسر له ذلك بلا أدنى زحام أو أذى يلحقه بالآخرين، وإلا في الإشارة إليه من بعيد غنية، وفيها الأجر كاملًا إن

شاء الله تعالى، وبهذا يتحقق الأمان الكامل لكل من دخل البيت معظمًا له، لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لسيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا عمر، إنك رجل قوي فلا تؤذ الضعيف وإذا أردت استلام الحجر فإن خلا لك فاستلمه وإلا فاستقبله وكبر»(أخرجه أحمد).

فليس من الإحسان أن يؤذي المسلم أخاه في هذه العبادة الجليلة، وليكن حاله هو الرفق والمسامحة، فمن علم من نفسه أنه لن يصل إلى الحجر إلا عن طريق الإيذاء والشد والجذب والإضرار بالمسلمين فيجب عليه أن يأخذ بتوجيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسيدنا عمر، وفي هذا تحقيق المصلحة للجميع، ولا ينقص ذلك من أجره شيئا بفضل الله ورحمته، وهذا له أبلغ الأثر في نفوس الناس وحثهم إلى الإحسان إلى الآخرين، ويظهر خلق المسلم في التعاطف والتراحم والرفق ولين الجانب مع أخيه المسلم وإن لم يعرف من أي بلاد الله جاء.

الإحسان بالتيسير فى أركان الحج:

ومن إحسان الله على عباده أن يسر عليهم فريضة الحج وأحكامها ؛ فعن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اذبح ولا حرج، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل الرمي؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارم ولا حرج. فما سئل النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: افعل ولا حرج» (أخرجه أبوداود).

وعن أسامة بن شريك قال: «خرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجًا فكان الناس يأتونه. فمن قائل: يارسول الله: «سعيت قبل أن أطوف أو أخرت شيئًا أو قدمت شيئًا، فكان يقول: «لا حرج إلا على رجل اقترض عرض مسلم وهو مسلم، فذلك الذى حرج وهلك».

بالإضافة إلى ذلك فإن الحج نفسه كفريضة مشروط بالاستطاعة. يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧).

أثر الإحسان في الحج في الدعوة:

لأن الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإن من خصائصه العظيمة أنه يتواءم مع الفطرة. وفطرة الإنسان الطبيعية تأنف الإكراه وتتأذى من المشقة وتضيق بالحرج، وربما دفعها هذا إلى خلع ربقة الطاعة، والسير في طريق المعصية وترك التكاليف الشرعية جملة.

لذا، ولأن الإسلام يراعي هذه الفطرة وهو دين الفطرة فقد راعى التيسير، ورفع الحرج عن الناس ليسلموا لله قلوبهم، وترضى بحكمه نفوسهم ويزداد لله حبهم. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ (النساء:٢٨).

ولكن مراعاة الفطرة الإنسانية ليس معناه السير وراءها كيفما سارت وإلى أي جهة اتجهت، لأن مراعاتها لا تقتضي ولا تستلزم هذه التبعية العمياء، وإنما تعني مراعاة أصلها مع تهذيب لها ورقابة عليها إذا ما انحرفت أو تكدرت.

إن أي نظام يصادم الفطرة الإنسانية ويناقضها لا يمكن أن يأتي بخير، ولا يتيسر له فرصة البقاء. ومن هذا المنطلق فإن رعاية هذه الخاصية والأخذ بها فى جانب الإفتاء يجعل القلوب تتأثر وتزداد ارتباطًا بهذا الدين. ولأن الله سبحانه هو الذي فطر النفوس على حب التيسير وكراهية الحرج والمشقة، والتأذي منها والنفور، فقد شرع الله ما يتناسب مع خلقتها؛ لأنه أعلم بها. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

ولأن الله لطيف بعباده، خبير بما ينفع معهم وما لا ينفع، وما يتناسب مع فطرتهم وما لا يتناسب، فإنه كان لطيفًا في التشريع الذي يرفع عن نفوسهم المشقة والحرج وتجلى هذا اللطف في كل مناحي العبادة؛ بل كان أصلًا من الأصول الثابتة في التشريع، حيث يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦).

وذلك من دلائل لطفه سبحانه بعباده لأنه جل في علاه لو شاء لشرع من العبادات ما فيه مشقة عظمى وحرج كبير للناس.

ومن هذا المنطلق فإن الفهم الصحيح للإسلام يجعل قلوب الناس أعظم استجابة، وأكثر استعدادًا للتأثر والتجاوب مع هذه الدعوة، وعلى العكس من ذلك، فإن التعسير وطلب المشقة والتشدد والفهم الخاطئ لحقيقة هذا الدين، يضع حواجز كبيرة بين الناس وبين الاستجابة لأمر الله، أو يصبح الداعية الغير فاهم صادًا عن سبيل الله وهو لا يدري؛ لأنه يأمر الناس بما لا يتناسب مع فطرتهم فيتركوه جملة ويكون هو المسؤول أمام الله عن إبعادهم بدلًا من تقريبهم، وإضلالهم بدلًا من إرشادهم، وتقنيطهم بدلًا من تبشيرهم!! وصدق النبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق». وقال: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا» (رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي).

* * *

حماية الإسلام للنفوس من الضرر المعنوي

بقلم: **الأستاذ يوسف العزوزي**(*)

مدخل

حرص الإسلام على تهذيب سلوك الأفراد من خلال عددٍ من الأحكام والقيم التي شرعها وحثَّ عليها: كالصدق والأمانة والوفاء بالعهود وغيرها، وفي المقابل منع جملةً من الممارسات والسلوكيات التي إن لم تُفضِ إلى إلحاق الضرر بالنفس، فإنَّ ضَرَرَها ولا شك سيَلحقُ الغير.

لهذا وغيره فقد حُرِّم كثير من مُسبِّبات الضرر: كالكذب وشهادات الزور وخيانة العهود، وكلُّ ما من شأنه أن يكون سببًا ووسيلةً إلى الأذية وإلحاق الضرر بغير حق، سواء في الأموال، أوالأجساد؛ بل حتى في الأعراض والعواطف والمشاعر.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] وهو عام في كل زمان ومكان.

ومثله ما جاء في براءة نبي الله موسى عليه السلام بعد ما أوذي، فبرَّأه الله مما قيل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ﴾ [الأحزاب:٦٩]، فمجرد مقالة قيلت وتهمة أُلحِقت سماها الله أذية وإنها لكذلك.

ويتجسَّد التحريم من خلال النصوص العامة والخاصة التي وردت في القرآن والسنة. فمنها ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله أنَّ النبي ﷺ قال: (لا ضرر ولا ضرار، من ضارَّضرَّهُ الله)(١).

فالحديث قاعدةٌ عظيمةٌ عند أهل العلم، ومع قِصَر ألفاظه واختصارِها يدخُلُ في كثيرٍ من الأحكام الشرعية، ويبيّن السياجَ المحكم الذي بنته الشريعة لضمان مصالح الناس، في العاجل والآجل.

المقصود بالضرر:

الضرر في اللغة: «ضد النفع. والمضرة: خلاف المنفعة. وضره يضره ضرًا وضر به وأضر به وضاره مضارة وضرارًا بمعنى، والاسم الضرر»(٢).

(*) حي أكدال ٥١٦ مدينة سيدي سليمان - المغرب

واصطلاحًا: «ما يَلحقُ الإنسان من أذى لا يحتمله فتَجِبُ إزالته»(٣).

وقيل هو: «الإخلال بمصلحة مشروعة للنفس أو الآخرين، تعديًا أو إهمالًا»(٤).

ولعل هذا التعريف أوسع؛ إذ يتناول جانب الضرر المادي والمعنوي وكل ما له علاقة بشعور الإنسان وعواطفه، أو شرفه أو عرضه أو كرامته أو سمعته، من غير تخصيصه بنوع معيَّن من أنواع الضرر.

المقصود بالضرر المعنوي:

تعريفات العلماء للضرر المعنوي لم تتجاوز حُدود إلحاق الأذى والمفاسد في الأعراض والكرامات والشرف والسمعة.

ومما ذُكر من تلك التعريفات:

«إلحاق مفسدة في شخص الآخرين لا في أموالهم، وإنما يمس كرامتهم أو يؤذي شعورهم، أو يخدش شرفهم أو يتهمهم في دينهم أو يسيء إلى سمعتهم أو نحو ذلك من الأضرار التي يطلق عليها اليوم اسم الضرر الأدبي»(٥).

وينقسم الضرر إلى أنواعٍ عديدةٍ، ومنها: الضرر المعنوي أو الأدبي، وهو ما سيكون عنه الحديث في هذه المقالة.

فالضرر المعنوي ليس محلُّه أموال المضرور وجسده، وإنما يُصيب مصلحةً غيرَ ماليةٍ ولا ماديةٍ محسوسة؛ كالحرية والعِرض والشَّرف.

«الضرر الأدبي والمعنوي كالضرر الذي يلحق الإنسان بسبب الاعتداء على حريته، أو في عرضه، أو في سمعته، أو في مركزه الاجتماعي، أو اعتباره المالي»(٦).

ولا ينبغي الاستهانة بالضرر المعنوي بدعوى أنه معنويٌّ فحسب، فليس من السُّهولة تجاهل هذه الأضرار، فقد يكون وقعُها أعظمَ وأشدَّ من الضرر المادي، خاصةً وأنَّ الضرر الماديَّ قابلٌ للتعويض والبدل، أما المعنويُّ فلا يُرَدُّ بحال. وكل محاولات ترميم الانكسار أو الخدش لا تعدو أن تكون كقول ابن الرومي بعد فقده فلذة كبده:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدي
فجودا فقد أودى نظيركما عندي

لذلك كان للضرر المعنوي اعتبارٌ شرعي، ولا أدلَّ على ذلك مما أعده الله تعالى لمن سعى في إلحاق الأذى بالناس واتهامهم وخدش أعراضهم من الجزاء والعذاب، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور:٢٣].

ولأنَّ الضرر مهما كان نوعُه يتنافى وتكريمَ الإسلام للجنس البشري، ومن التكريم صيانةُ

الأعراض وحفظُ المكانة، فجاء التحريمُ عن إيقاع الضرر بالنفس أو الغير حفظًا وتكريمًا، (مَن ضارَّ أضر الله به)(٧).

مفهوم التعويض عن الضرر:

ذكر أهل العلم تعريفات لمفهوم التعويض عن الضرر، ومن ذلك:

- أنه «المالُ الذي يُحكَم به على من أوقع ضررًا على غيره في نفسٍ أو مالٍ أو شرف، والتقديرُ في تعويض الشرفِ من باب التعزير الذي وَكَلت الشريعة الإسلامية أمرَهُ إلى الحاكم، يُقدِّرُهُ بالنظر إلى قيمة الضرر ومنزلة المجنيِّ عليه والعُرف الجاري في مِثله. وأساسُ التعويض المالي في الشرف مأخوذٌ من مذهب الإمام الشافعي»(٨).

- و: «ليس المقصود بالتعويض مجرَّدَ إحلالِ مالٍ محلَّ مال؛ بل يَدخُل في الغرض منه المواساةُ إن لم تكن المماثلة، ومِن أظهر التطبيقات على ذلك الديةُ والأَرشُ، فليس أحدُهُما بدلًا عن مالٍ ولا عمّا يُقوَّم بمال»(٩).

فالتعريفان يُظهران حقيقةَ التعويض عن الضرر المعنوي، وبعضَ تطبيقاته، وكيفية تقديرِ قيمته، وكذا الحكمةَ من التعويض عنه، والتي تكمن في المواساة وجبر ما حلَّ من الانكسار وحصل من الانفطار.

غير أنه وإن حصل الاتفاق على أنَّ الضرر المعنوي هو ما يُصيب المرء في عِرضِه وسُمعته مما لا يُسبِّب أذىً ظاهرًا، لكن اختُلِف في جواز التعويض الماليِّ عن الضرر النفسي.

مشروعية التعويض عن الضرر المعنوي:

ثمة خلافٌ في مسألة التعويض عن الضرر المعنوي، وإن ذهب بعض الفقهاء إلى القول بمشروعية التعويض، إلا أنَّ ذلك لا يَرفعُ الخلاف بين مُجيزٍ ومانع.

ولعلَّ السببَ في اختلاف الفقهاء هو طبيعةُ النصوص المؤطِّرة للضرر المعنويِّ خاصّةً، وكذا طبيعةُ ومقدار التعويض، وغياب فروع فقهية قريبة الإلحاق؛ حيث إنَّ جُلَّ النصوص الواردة إنما هي في خصوص الضرر المادِّي، وما ورد منها مما يمكن أن ينضوي تحته الضرر المعنوي تبقى نصوصًا عامةً في النهي عن الضرر.

يقول الشيخ الزرقا رحمه الله: «الحكم بالتعويض المالي عن الضرر الأدبي حُكمٌ مستحدَثٌ، ليس له نظائرُ في الفقه الإسلامي»(١٠).

غير أنه قد وُجد في الشريعة بعضُ الأحكام التي قديُستنبط منها مشروعية دفع الضرر المعنوي بِعِوَضٍ مالي.

فمن ذلك: مشروعية الصداق في الإسلام.

فقد شرع الإسلام المهرَ دلالةً على الرغبة والمودة التي يريد الزوج أن يعبّر عنها لزوجته، وليُستمال به قلبُ المرأة، مُعربًا عن صِدق رغبته وحقيقة طلبه، وليس ثمنًا ولا مقابلًا ماديًّا لأيٍّ معنىً من معاني الزواج الذي عبَّر عنه القرآن بأنه ميثاقٌ غليظ.

من أجل تلك المشروعية لم يجعل الإسلام للمهر مقدارًا محددًا، وإن كان بعض الأئمة قد اختلفوا في تحديد أقلِّهِ هل هو دينارٌ من ذهبٍ أو رُبعه؟(١١).

ومن حِكَمِهِ: إكرامُ المرأة وإشعارُها بأنها هي المطلوبة المرغوبة لا الطالبة، وإقدارُها قدرَها حتى ولو اقتضى الحال أن يَفرضَ لها المقدارَ الكبير؛ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٢٠]، فلا يجوز العُدول عما فرض، كل ذلك إكرامًا لها، وهو يرفع من شأن المرأة، ويُعلي من قدرِها وحتى لا تجد في نفسها حرجًا ولا يحلَّ بمشاعرها ضررٌ جرَّاء فقْدِ أهلها والاغتراب عن موطنها، فأثرُهُ النفسيُّ ظاهر جليٌّ غير خَفيّ.

فالرجلُ يبذلُ المال ويهبه إياها نحلةً منه، أي عطيّةً وهديةً وهبةً منه، لا ثمنًا للمرأة، ولا أنه أجرةٌ للاستمتاع.

فلو كان الأمر كذلك لما فرض الإسلام نصف المهر على من تزوَّج ثم طلَّق قبل أن يدخل بزوجته دون مسيس، تقديرًا لهذا الميثاق الغليظ والرباط المقدس، وإشعارًا لها بالمواساة، مما يدلُّ على أن الاستمتاع ليس هو الأساس، ولو كان سبب المهر وعِلَّتُه العِوَض عن الاستمتاع لشرع أن تدفع المرأة الصداق لزوجها كذلك، إذ الاستمتاع حاصلٌ للطرفين، وكلُّ ذلك مما يؤكِّد أن غاية المهر وحكمتَه أعظمُ من الاستمتاع وأجَلُّ من العِوَض والثمنية المادية.

يقول الدكتور الزحيلي رحمه الله: «الحكمة من وجوب المهر: هي إظهار خطر هذا العقد ومكانته، وإعزازُ المرأة وإكرامُها، وتقديم الدليل على بناء حياةٍ زوجيةٍ كريمةٍ معها، وتوفيرُ حسنِ النيةِ على قصدِ مُعاشرتها بالمعروف، ودوامِ الزواج. وفيه تمكين المرأة من التهيُّؤ للزواج بما يلزم لها من لباسٍ ونَفَقة»(١٢).

تلك المعاني الجليلة التي تضمَّنها المهر، من تطييب نفسِ المرأة به، وإكرامِها وإعزازِها بما قُدم لها، وإعلان حسنِ نية مُعاشرتها بالمعروف، وتمكينِها من تهيئة نفسها بما يلزمُها، كلُّ ذلك ولا شك إن لم يَجبُر ما قد وجدته في نفسها من ضررِ فِراقِ أهلها،

والاجتماع برجل غريب والإقامة ببيتٍ غريب وموطن غريب، لكنه كفيلٌ بجبرِ بعضِهِ وتقليلِ وقعِ الضررِ الموجود ببعضِ ما بَذَل، فالنفوسُ ميّالةٌ إلى مَن يُحسن إليها ويُدلِّلُها، فكيف إذا تعلَّق الأمرُ بالمال؟ وتلك الفطرة والنفس البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٦-٨].

متعة الطلاق:

والمقصود بها: «ما يعطيه الزوج لزوجته عند الفراق تسليةً لها لما يحصلُ لها من ألم الفراق»(١٣)، جبرًا لخاطرها، وليس لها حدٌّ معلوم.

فما يُعطيه الزوج لمطلَّقته عن طيبِ خاطرٍ يجبُرُ به ما قد يحصُلُ من الألم والضرر النفسي الذي حصل لها بسبب الفراق.

وقد توافرت النصوص على مشروعية هذا النوع من المواساة والتسلية. فلقد أمر الله بها في القرآن الكريم: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٤١].

وقال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٢٣٦].

فالأمر الوارد في هذين النصين بالمتعة وإن كان مُحتمِلًا للوجوب والندب، ومحلَّ اختلافٍ بين الفقهاء، إلا أنهم مُتَّفقون على أنَّ ذلك يُعتبر دليلًا على تشريع المتعة في الطلاق لغرض جَبر الخواطر والتعويض عن الأضرار النفسية المعنوية، حتى رُوي عن القاضي شريح رحمه الله أنَّه كان يُجبر المطلق على دفعِ المتعة لمطلَّقته، كما أورده ابن عبد البر في الاستذكار(١٤).

وقد قال الشيخ الصابوني رحمه الله في تفسير الآية الثانية: «أي وإذا طلقتموهن فادفعوا لهن المتعة تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لوحشة الفراق»(١٥).

فبالمتعة تنفكُّ تلك الندبة النفسية التي من الممكن أن تجعل الطلاقَ طعنةَ عِداءٍ وخصومة، وبها يَندفعُ ذلك الجوُّ المكفَهِرّ وينسِمُ فيها نسمات الوُدِّ والمعذرة، ويُزيل عن الطلاق جوَّ الأسفِ والأسى.

قال ابن العربي رحمه الله: «... لِما لَحِق الزوجة من رحض العقد ووصم الحِلّ الحاصل للزوج بالعَقد، فإذا طلقها قبل المسيس والفرضِ ألزمه المتعة كفؤًا لهذا المعنى»(١٦).

لذلك فكلُّ طلاقٍ تختارُه المرأة من غير سببٍ يكون للزوج في ذلك، كأن تختلع فإنه يسقط حقُّها في المال وفي الأثر النفسي؛ لأنها هي التي ترغب به فينتفي الضرر.

يقول ابن الفَرَس: «... قالوا: المرأة إذا

اختارت فراق زوجها لم تشقق لذلك ولا حزنت، فلا يحتاج الزوج إلى تسليتها وتطييب نفسها»[١٧].

بل قد يكون الزوج غير راغبٍ بالطلاق فيتضرَّرُ هو جراءَ ذلك.

فشُرع له مبلغٌ من المال عند الخُلع تدفعُهُ الزوجة مقابل طلبها للفراق، دفعًا للضرر الواقع من الزوجة على زوجها، كما شُرع لها مُتعة الطلاق دفعًا للضرر وتسليةً للنفس وتطييبًا للخاطر.

ومن هذا أيضًا قولُهم: إن المرأة المراجَعة بعد الطلاق وقبل المتعة لا مُتعة لها كذلك؛ لأنَّ ما يحصل بالمتعة وهو التسلية قد حصل بالارتجاع، فلا محل للمُتعة عندها.

يقول الإمام ابن العربي في المسالك: «المسألة الثالثة: فإن طلَّقها بعد البناء، ثم راجع قبل أن يمتع، فلا مُتعة لها، قاله ابن وهب وأشهب؛ لأن المتعة تسليةٌ عن الفراق، والتسلية بالارتجاع أعظم»[١٨].

ردُّ الاعتبار:

والمقصود بردِّ الاعتبار هو إرجاعُ الكرامة واستعادةُ المكانة في الحياة الاجتماعية.

فكان تشريع الحدود والأحكام التي تمنع إلحاق الأذى بالغير ضامنًا لهذا الغرض محققًا لتلك المقاصد.

ومما ورد في هذا الباب ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أُتي برجل شَرِب الخمر فقال: (اضربوه). قال أبو هريرة: فمنَّا الضاربُ بيده، ومنا الضاربُ بنعله، ومنا الضارب بثوبه، فلمَا انصرَفَ قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال لهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: (لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطانَ)[١٩].

فالنبيُّ عليه السلام عَلَّم الصحابة ونبَّههم على ترك لوم شارب الخمر بعد توقيع العقوبة عليه، وهو عامٌّ في كلِّ من أُدين بجرمٍ ما حتى لا يجد احتقارًا من أفراد المجتمع له، ويكون ذلك سببًا للتمادي في ارتكاب جريمته.

وأعظم من ذلك حرصُ الإسلام على صيانة أعراضِ الأموات وردِّ الاعتبار لهم بعد إقامة الحدِّ والتوبة.

فكذلك كان الشأنُ مع الغامدية؛ فلقد ردَّ النبيّ عليه السلام للغامدية اعتبارَها بعد موتها عندما استعظم عمرُ رضي الله عنه صلاةَ النبي عليها وهي التي زَنَتْ، فقال:تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال عليه السلام: (لقد تابت توبةً لو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله؟)[٢٠].

ومن صور الجزاء عن إيقاع الضرر الأدبي في الإسلام التوبيخ والتقريع والإغلاظ بالكلام، ومن

ذلك ما روى أبو ذر رضي الله عنه أنه سابّ رجلًا فعيَّره بأمه، فقال الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: (أعيرتَه بأمه! إنك امرؤ فيك جاهلية)[٢١].

وقد حكى القرآن والسنة نماذجَ عدَّةً لصور ردِّ الاعتبار، تنوَّعت بين مواساة المتضرِّر مرةً، وإنزال العقاب بصاحب الضرر أخرى.

فمن ذلك:

التعويض عن ضرر القذف:

والمراد بالقذف: الرميُ والاتِّهام بالزنا، وهو عينُ الضرر والأذى النفسي والمعنوي؛ إذ فيه تدنيسٌ للشرف واتِّهامٌ للعِرض، وإلصاقٌ للمذلَّة والمهانة لمن رُمي واتُّهم بذلك.

ومن أوضح صور الجزاء عن إيقاع الضرر الأدبي: «الجزاء بالجلد كما في حدِّ القذف، فإنَّ القاذف يجبُ عليه حدُّ القذف بشروطٍ لما سبَّبه من إيذاءٍ أدبيٍّ ومعنويٍّ للمقذوف وغيره»[٢٢].

وقد شرعه الإسلام جزاءً عن إيقاع الضرر الأدبي كغيره من الأحكام والقضايا التي كان الغرض فيها الزجرُ عن ذلك الفعل الشنيع.

ويقول ابن العربي عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور:٤]: «يريد: يشتُمون. واستعير له اسم الرمي لأنه إذاية بالقول؛ ولذلك قيل له: القذف»[٢٣].

فخطورة القذف إنما يجدها من لحق به لا من صدر عنه، فجرح اللسان لا يقل ضررًا وخطرًا عن جرح اليد؛ بل قد يفوقه، وفي هذا المعنى يقول الحمدوني:

جراحات السنان لها التآم
ولا يلتام ما جرح اللسان

فلا شكَّ أنَّ الجلد عقوبةٌ بدنيةٌ حِسِّية، وردُّ الشهادةِ وعدمُ اعتبارِها واستبعادُه عن المشاركة في مظهرٍ من مظاهر الحياة الاجتماعية والحقوق الدينية عقوبةٌ معنوية.

لأنَّ الإسلام ينظر إلى الأعراض بالتكريم والتنزيه؛ فلا يجوز مسُّها وقربُها بسوء، فمن استطاع أن يدفع عن عِرض غيره سوءًا دفع، ومن لم يستطع سَكَتَ وحاد وامتنع.

مشروعية الدية في القتل الخطأ:

وهي عبارةٌ عن المال الواجب في قتل النفس تدفع إلى أولياء المجني عليه بسبب تلك الجناية.

وقد أوجب الله على عَصَبة من قَتل قتلًا خطأ ديةَ القتل، تؤدَّى لأهل القتيل تعويضًا عن الضرر الذي أحدثه القاتل، إلا أن يُبرِئ أولياءُ الهالك عَصَبَةَ القاتل من الدية ويتصدَّقوا بها ويُعطوهم إياها. قال تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ [النساء:٩٢].

قـال ابـن العـربي: «المـسألة الـسابعة: «وديـةٌ مـسلَّمةٌ إلى أهلـه» أوجـب الله تعـالى الديـة في قتـل الخطأ جبرًا»(٢٤).

فقوله: «جبرًا» يقتضي أمرين:

أنَّ الدية تجبُرُ التقصير الحاصل من لدن القاتل الذي أدى إلى إزهاق نفسٍ غيره خطأ.

أنَّ دفعَ الدية من طرفِ عاقلةِ القاتلِ الغرضُ منه جبرُ الضرر الذي لحقَ بأهلِ الهالك جرَّاء هلاكه عن طريق الخطأ، ومواساتُهم في الفقد.

وكِلاهُما يتحقَّق عبر دفع المتسبِّب في الهلاك وأهلـه الديـةَ لأهـل الميـت خطـأ، فـالجبرُ حاصـلٌ للمحلَّين معًا، فالدية كما وجبت زجرًا عن التقصير، فإنهـا وجبـت جـبرًا للـضرر والخطـأ ومواسـاة أهـل القتيـل مواسـاةً محضةً كـما أفهمـه كـلام العلامـة ابـن العربي قبل.

وينبغي أن يعلم أن التعويض ليس الغرض منه مجرَّد إحلال مالٍ محلَّ آخر؛ بل يدخُلُ في الغَرَض منه بالدرجة الأولى المواساةُ، إن لم تكن المماثَلَة، كالدية والأرش، فليس أحـدهما عوضًـا عـن مـال ولا عـما يُقوَّمُ بمال.

وفي التفـسير الوسـيط: «والتعبـير عـن أداء (الدين)(٢٥) بقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ يومئ إلى وجوب حُسن الأداء بأن تسلَّم هذه الدية إلى أُسرة القتيـل بكـل سـماحةٍ ولطـفٍ جـبرًا لخاطرهـا عـما أصابها»(٢٦).

فمتى وجدوا من أنفسهم قوةً على التحمُّل للضرر ومواساةَ أنفُسهم وآثروا التصدُّق بالدية كان لهم ذلك.

يقـول مؤلـف الفقـه المنهجـي عـلى مـذهب الـشافعي: «...لأنَّ الله تعـالى شرعَهـا حقًـا للعبـد، وتسويةً للعلاقات الإنسانية أن لا يتهدَّدها الضغائن والأحقاد، فإذا عفا صاحب الحق عن حقه؛ فذلك هو الأفضل»(٢٧).

يقـول الإمـام القرطبـي رحمـة الله عليـه: «والتـصدُّق: الإعطـاء. يعنـي إلا أن يـبرئ الأوليـاءُ ورثةُ المقتولِ القاتلينَ مما أوجب الله لهم من الدية عليهم... -ويضيف- وأما الكفَّارة التي هي لله تعـالى فـلا تـسقُطُ بـإبرائهم؛ لأنـه أتلـف شخـصًا في عبادة الله سبحانه، فعليه أن يخلص آخر لعبادة ربه، وإنما تسقط الدية التي هي حق لهم»(٢٨).

ولما كان في علم الله تعالى أن الاتصاف بتلك الصفات الحميدة ليست في مقدور كل البشر، وليس كل عباده مؤهلًا لتحققها فيه لموانع تمنعهم من ذلك ولمرض في قلبهم وضعف في أنفسهم؛ كالأنا وحب الـذات وغيـاب مبـدأ الأخـوة والرحمـة والـشعور بالآخر، أوجب الله تعالى بعضَ ما يمكن أن تنجبر

بـه القلـوب، وتـرمم بـه العواطـف، وتتـسوى بـه العلاقات الإنسانية ولا تتقوض.

خاتمة:

إنَّ الـشريعة وإنْ صـانت الأعـراض والأنفس، فإنها قد حفظت على أهلها مشاعرهم وعواطفهم من الانكسار، ومنعت كل ما من شأنه أن يعرضها للانفطار، وحريٌّ بها ذلك!

فهي شريعة الرحمة والعدل، رحمةٌ كلُّها وعدلٌ كلُّها.

يقـول ابـن قـيم الجوزيـة: «... فـإن الـشَّريعة مبناهـا وأساسـها عـلى الحكـم ومـصالح العبـاد، في المعـاش والمعـاد، وهـي عـدل كلهـا، ورحمـة كلهـا، ومصالحُ كلها...»[٢٩].

وإنه لمما يأباه العقل الصحيح ويرفضه الفكر الرجيح اجتماع الرحمة والعدل مع الضرر، لذلك كان أساس الشريعة الإسلامية نفي الخوف والحزن والأسى- ألا تخافي ولا تحزني- شريعة يستحق فيها الجنةَ مَن سقى كلبًا، فكيف بمن صان قلبًا؟

* * *

الهوامش:

(١) أخرجه الدار قطني فيسننه (٣٠٧٩).

(٢) لـسان العـرب لابـن منظـور ط. دار صـادر سـنة ٢٠٠٣م (٣٣/٩).

(٣) تقريب معجم مصطلحات الفقه المالكي، لعبد الله معتصر، ص (٨٦).

(٤) الـضرر في الفقـه الإسـلامي، للـدكتور أحمـد مـوافي ج١ ص(٩٧).

(٥) نظرية الضمان في الفقه الإسلامي العام، لمحمد فوزي فيض الله، ص (٩٢).

(٦) المعـاملات الماليـة المعـاصرة، لـدبيان بـن محمـد الـدبيان، ص(٤٨٣).

(٧) أخرجه أبو داود (٣٦٣٥) والترمذي (١٩٤٠).

(٨) المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية، لمحمود شلتوت، ص (٣٥).

(٩) المذكرة الايضاحية لإبراهيم أبو رحمة.

(١٠) ينظر: الفعل الضار، للدكتور مصطفى الزرقا، ص (١٢١).

(١١) البهجة في شرح التحفة، للتسولي (٤٥٨/١).

(١٢) الفقه الإسلامي وأدلته، للزحيلي (٢٨٩/٧).

(١٣) الفواكه الدواني، للعلامة النفراوي (٥٦/٢).

(١٤) الاستذكار، لابن عبد البر (١٢٠/٦).

(١٥) صفوة التفاسير، للصابوني (١٢٨/١).

(١٦) أحكام القرآن، لابن العربي (٢٩١/١).

(١٧) أحكام القرآن، لابن الفَرَس (٣٥٨/١).

(١٨) المسالك في شرح موطأ مالك، لابن العربي (٦١٢/٥).

(١٩) أخرجه البخاري (٦٧٧٧).

(٢٠) أخرجه مسلم (١٦٩٦).

(٢١) أخرجه البخاري (٣٠).

(٢٢) الفقه الميسر، للدكتور عبد الله الطيار (٣١/١٠).

(٢٣) أحكام القرآن، لابن العربي (٣٤٠/٣).

(٢٤) المرجع السابق (٦٠٠/١).

(٢٥) لعل المقصود: الدية، بدل الدين.

(٢٦) التفسيرالوسيط للقرآن الكريم، لمحمد طنطاوي(٢٥٨/٣).

(٢٧) الفقـه المنهجـي عـلى مـذهب الـشافعي، مُـصطفى الخِـنْ، مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي (٤١/٨).

(٢٨) تفسير القرطبي (٣٢٣/٥).

(٢٩) إعلام الموقعين، لابن القيم (٤١/١).

* * *

اختلاف الرأي: أصول وآداب

بقلم: الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي(*)

الاختلاف طبيعة أصيلة في المجتمع الإنساني

من أعظم حقائق هذا الكون وأجلاها، حقيقةُ التنـوع البـديع. فـاللهُ ربُّ العـزةِ لم يـشأْ لخلقـه أن يتـشحوا بـرداء الرتابـة والتـشابه؛ بـل أراد لهـم أن يتزينوا بحُلّة التعدد وجمال التغاير. فالنجوم التي لا تُحصى والمبثوثة في صفحة السماء، والبساتين اليانعة المتنوعة على أديم الأرض، وما لا يُعد من الكائنات الحية التي تدبُّ عليها، كل أولئك شهودٌ على أن الخـالق سـبحانه وتعـالى قـد آثـرَ التنـوع وأحـبَّ الاختلاف.

وعلى هذا المبدأ العظيم نفسه، جرت سُنّته في خلق أشرف المخلوقات: الإنسان. فما من إنسانٍ إلا وقد مُنح صورةً فريدة وهيئة متفردة تميزه عن سواه؛ بـل وفـوق ذلـك، عُمِّـر في أعماقـه عـالمٌ مستقلٌّ قـائمٌ بذاته من الفكر والنظر، والفهم والإدراك، والذوق والوجدان. وكما يستحيل أن تتطابق وجوه البشر أو أن تتشابه بصمات أناملهم، فكذلك من العبث أن نتوقع أن تتوحد عقولهم في كل شأن، أو أن ينظروا إلى الأمور من زاوية واحدة، أو أن يخلصوا فيها إلى نتيجة واحدة.

وهذا الاختلافُ في الفكرِ هو، في حقيقة الأمر، بمثابـةِ الأكـسجين الـذي تتـنفسُ بـه المجتمعـاتُ البـشرية لتنمـوَ، وتزدهـر بـه الحـضارة، ويتجـدد بـه رقيهـا. فحـينَ تجتمـعُ العقـولُ المختلفـةُ للتفكّـر في مسألةٍ ما، تتكشّفُ جوانبُها الخفيّةُ، وتُشرَعُ أمامها دروبٌ جديدة، وتتدفقُ أنهارُ العلمِ والمعرفة. وإذا ما بقـيَ هـذا الاخـتلافُ ضـمنَ حـدودِهِ الـسليمة والمعتدلة، فإنهُ يغدو قوةً تصقلُ المواهبَ الفكريةَ للأممِ، ويحررها من الجمود، ويدفعُ بها إلى رحابِ الحركةِ والعمل. والإسلامُ، بوصفهِ دينَ الفطرة، لا يقـرُّ هـذه الحقيقـةَ فحـسب؛ بـل ويحـثُّ عليهـا ويشجعها.

(*) رئيس قسم الكتاب والسنة بالجامعة الإسلامية، كيرالا

ولكـن، يـبرزُ هـٰهنا سـؤالٌ جـوهريٌّ: كيـفَ للاختلافِ الذي كانَ حريًّا بهِ أن يكونَ للأمةِ رحمة، أن يمسِيَ اليـومَ في مجتمعاتنـا مبعـثَ نقمـةٍ وشـقاء؟ وكيفَ لـذلكَ التنـوعِ الفكـريِّ الـذي كـانَ يومًـا زينـةَ محافلنـا العلميـة، أن يـستحيلَ اليـومَ في مـساجِدِنا وشوارعِنا وأسواقِنا أداةً للكراهيةِ والفرقة؟

إنّ الجـوابَ عـلى هـذا الـسؤالِ يكمـنُ في إدراكِ الفـارقِ الـدقيقِ بـين «الاخـتلاف» و «الافـتراق». فـاختلافُ الـرأيِ منبعـهُ العقـلُ والفكـرُ، وميدانُـهُ الـدليلُ والبرهـان؛ أمـا الافـتراقُ والتنـازعُ فمرجعـهُ أهـواءُ الـنفسِ، وغـرورُ الأنـا، وعـصبيّةُ الجماعة. لقد اختلـفَ أسـلافُنا وأئمتُنـا الأجـلاء؛ ولكـنهم ظلّـوا بمنأىً شاسعٍ عـن الافتراق والـشقاق. لقد علّمونـا فنَّ الاختلافِ، وهـو فنٌّ كِدنا اليومَ أن ننساهُ تمامًا. وفي هـذه المقالـة سنسعى للتنقيـبِ عـن هـذا الإرثِ المفقـودِ مـن حـضارتنا الإسلامية، عسانا نجني من الاخـتلافِ أزهـارَ الرحمـةِ الكامنـةِ فيـه، بـدلًا مـن أن نعلقَ في أشواكِه.

أصولٌ ذهبيةٌ وآدابٌ رفيعةٌ للاختلاف

إنَّ سـيرةَ فقهائِنـا العِظـام، ومحـدِّثينا الكـرام، وأئمتنـا الأعـلام، لهـيَ خيرُ شـاهدٍ عـلى أن اخـتلاف الـرأيِ يمكـن أن يبقـى في دائـرةٍ علميـةٍ وحـضاريةٍ، دونَ أن يتحـولَ إلى عـداوةٍ شخـصية. ومـن نهجهـم هـذا، تـتجلى لنـا أصـولٌ ذهبيـةٌ للاخـتلافِ مـا تـزالُ قادرةً على أن تكونَ لنا نبراسًا يهدينا سواء السبيل.

١- إخلاصُ النيّةِ وابتغاءُ الحق

لم يكـنِ الغـرضُ مـن الاخـتلافِ في مجـالسِ الـسلفِ العلميـةِ إشـباعًا للـذات، أو استعراضًـا للمعرفـة، أو إذلالًا للمخـالف؛ بـل كـانَ مبتغـاهُم الأسـمى ومنتهـى غـايتهم هـو «ابتغـاء الحـق»، أي البحـث عـن الحقيقـة لـيس إلا. وقـد سـارَت عـلى ألسنتهم تلك المقولةُ الخالدة: «رأيي صوابٌ يحتملُ الخطـأ، ورأيُ غـيري خطـأٌ يحتمـلُ الـصواب». (الرسـالة للإمـام الـشافعي، تحقيـق أحمـد شـاكر، ص:٥٠٩)

لقـد كـان هـذا الإخـلاصُ الـصادقُ هـو الـذي يفرضُ عليهم احترامَ بعضهم بعضًا. فقد أيقنوا أنه متى ما كانت النيةُ خالصةً لوجه الله، فإنَّ المجتهدَ إذا أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران. (صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم ٧٣٥٢). وبهذا الإخلاصِ تنزّهت خلافاتُهم عن الشخصنةِ، فظلّت مجالسُهم رياضًا غنّاءَ للعلمِ والحكمة، ولم تتحول قطُّ إلى ساحةٍ لصراع الأنفس

والغرور.

٢- احترامُ الشخصِ وحُسنُ الظنِّ به

إنَّ من أولى أبجديات أدب الخلاف أن يكون الاختلافُ موجّهًا إلى «الرأي»، لا إلى شخصِ «صاحب الرأي». فلكَ أن تصفَ دليلَ محدّثِك بالضعف، ولكن ليس لكَ الحقُّ أن تطعنَ في نيّته، أو أن تحتقرَ ذاته أو تنتقص من قدره. وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». (صحيح البخاري:٦٠٦٥)

لقد كانَ أئمتُنا، على الرغمِ من شدةِ اختلافهم العلميِّ، يكنّونَ لبعضهم البعضِ مشاعرَ الاحترامِ والمودة، ويقرّون بفضل بعضهم في العلم والتقوى والإخلاص. فإذا انتقد أحدهم الإمام مالكًا أمام الإمام الشافعي، كان يغضب ويقول: «مالكٌ نجمُ سماءِ العلم». وبالمثلِ، حينَ سُئلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله عن الإمام الشافعي، قال: «كانَ الشافعيُّ كالشمسِ للدنيا، وكالعافيةِ للبدن». (طبقات الحنابلة لابن ابى يعلى، جلد ١، صفحة ٢٨٠) إنَّ هذا النهج ليعلّمنا درسًا بليغًا، وهو أنَّ النقدَ العلميَّ والاحترامَ الشخصيَّ أمرانِ منفصلان، ولا بدَّ لهما في مجتمعٍ متحضّرٍ أن يظلَّ كلٌّ منهما قائمًا في موضعه.

٣- وقارُ اللسان ورصانةُ البيان

إنَّ قوةَ الحجةِ لا تكمنُ في جهارةِ الصوتِ أو قسوةِ العبارة؛ بل في وزنها الذاتيِّ ورصانةِ بنيانها. وتأريخُ مناظراتِ أسلافِنا العلميةِ خيرُ شاهدٍ على أنهم كانوا يتحلّون بأفصحِ البيانِ وأرفعِ الأسلوب. فالطعنُ، والتشنيعُ، والبذاءةُ، والسخريةُ، واغتيالُ الشخصيةِ، كلُّها كانت تُعدُّ في أعرافهم من أكبر المعايب والآثام. لقد كانوا يدركون أن أتباعَ دينٍ بعثَ الله نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»، حريٌّ بألسنتهم أن تنثرَ الأزهارَ لا أن تبثَّ الأشواكَ.

أما اليوم، وفي عصرِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ، حيثُ نصبَ كلُّ امرئٍ نفسَه مفتيًا، وتصدّرَ كلُّ قليلِ بضاعةٍ في العلمِ مَقامَ الحكماء والعلماء، فقد جُرِحَ هذا النقاءُ للسانِ، وخُدِشَ ذلك الوقارُ للبيانِ شرَّ خدش. لقد صرنا نعدّ الاختلاف رخصةً للفظاظةِ وسوءِ القول، وهذا منافٍ تمامًا لروحِ تعاليمِ الإسلام.

في مرآة التأريخ:

نموذجٌ عمليٌّ للاختلافِ والاتحاد

إنَّ الأمثلةَ العمليةَ أشدُّ تأثيرًا في النفوسِ من المبادئ النظرية، وتأريخُنا الإسلاميُّ حافلٌ بنماذجَ

حيّةٍ لا تزالُ قادرةً على إيقادِ شعلةِ الأملِ في قلوبنا حتى اليوم. لقد وُجدت بين الإمام الأعظم أبي حنيفة والإمام الشافعي رحمهم الله اختلافات فقهية جلية. ومع ذلك، حينَ قدمَ الإمامُ الشافعيُّ إلى بغداد - التي كانت آنذاك مركزًا لتلامذةِ أبي حنيفة - صلّى الفجرَ فلم يقنتْ ولم يرفعْ يديه في مواضع الخلاف، وذلك إجلالًا واحترامًا للإمام أبي حنيفة. ولما سئل عن ذلك، أجاب بكلمات تستحق أن تكتب بماء الذهب: «قال: ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق». (حجة الله البالغة :١/ ٢٧٠)

لم يكنْ هذا مجرّدَ تصرّفٍ عابرٍ في مسألةٍ فقهية، بل كانَ رسالةً صامتةً بليغةً وجّهها إلى الأمة، مفادُها أنَّ احترامَ عالمٍ جليلٍ ورعايةَ وحدةِ الصفِّ أعظمُ قدرًا وأولى بالعنايةِ من التمسكِ بالاجتهادِ الشخصيِّ والرأيِ العلميِّ الخاص.

وعلى هذا الدربِ من السموِّ، سارَ الإمامُ مالكٌ رحمه الله، حينَ طلبَ منه الخليفةُ هارونُ الرشيدِ أن يجعلَ من كتابه «الموطأ» قانونًا رسميًا للدولة، وأن يُلزِمَ المسلمينَ كافةً العمل بما فيه، فأبى الإمامُ إباءً شديدًا، وقال: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم... فدعِ الناسَ وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم». إنَّ في هذا الموقفِ مثالًا عظيمًا على سعةِ أفقِ الإمامِ ورحابةِ صدره، وتسامحِهِ الفكريِّ، حيثُ آثرَ ألا يفرضَ اجتهادَه على الآخرين، مؤمنًا بأنَّ في هذا التنوعِ العلميِّ رحمةً للأمةِ وسعة.

هؤلاء العظماء، رغم اختلافاتهم، كانوا يصلون خلف بعضهم البعض، ويشاركون في مجالس بعضهم، ويحفظون فيما بينهم أواصر المحبة والود. لقد ظلَّ اختلافُهم محصورًا في دائرةِ العلمِ؛ فما إن كانوا ينهضونَ من حلقاتِ النقاش، حتى تعودَ قلوبُهم تجاهَ بعضِها صافيةً كصفاءِ الزجاج، لا يحمل أحدهم على الآخر ضغينة أو حقدًا. لقد علّمونا بسيرتهم العمليةِ أنَّ زرعَ الضغائنِ في القلوبِ، وتفريقَ الصفوفِ في المساجدِ، وتمزيقَ شملِ الأمةِ إلى جماعاتٍ متناحرة بسببِ الاختلافِ في الفروع، ليسَ إلا علامةً من علاماتِ الجهلِ وضيقِ الأفق.

تشخيصُ الأزمةِ وطريقُ الوحدة

إذا كانَ ماضينا مُشرقا هكذا، فلماذا أمسى حاضرُنا بهذه القتامة؟ إن لهذه الأزمةِ أسبابًا جوهريةً، من أهمها:

● **انحسارُ العلمِ وطغيانُ العاطفة**: حينَ يندثرُ

من مجتمعٍ ما عُرفُ البحث والتحقيق والتعمقُ في العلم، فإنَّ الفراغَ الذي يتركهُ تملؤه المعلوماتُ السطحيةُ والشعاراتُ العاطفية. فينشغل الناس بالجدال والصراع، دونَ أن يفقهوا روحَ تعاليمِ أئمةِ السلف، ودونَ أن يميّزوا بينَ الأصولِ والفروع.

● **الغلوُّ في المحبةِ وجمودُ التقليد**: لقد أفرزَ النقصُ في العلمِ والبصيرةِ في مجتمعِنا آفةً خطيرةً أخرى، هي «تقديس الأشخاصِ» و «التقليد الجامد». فلقد علّمنا أئمتُنا الكرامُ على الدوامِ أن آراءَهم إنما تُعرَضُ على ميزانِ القرآنِ والسنة، وأنهُ إذا ما ظهرَ دليلٌ أقوى يخالفُ رأيَهم، وجبَ تركُ ذلك الرأيِ والأخذُ بالدليلِ الأقوى. بيدَ أنَّهُ مع مرورِ الزمن، شُيّدت حولَ آراءِ هؤلاء الأعلام أسوارٌ منيعة، حتى أمسى الحوارُ العلميُّ وتبادلُ الرؤى أمرًا عسيرًا.

● **العواملُ السياسيةُ والخارجية**: يشهد التأريخ أنَّ القوى الخارجيةَ لطالما استغلت خلافاتِ الأمةِ الداخليةَ لتحقيقِ مآربِها. فقد عمدتْ إلى تأجيجِ نار هذه الخلافاتِ الفرعيةِ لتضربَ المسلمينَ بعضَهم ببعض، فيضعفَ شأنُهم، ويسهُلَ التغلّبُ عليهم.

● **الأنانيةُ وحبُّ الجاه**: إنَّ ما يكمنُ خلفَ كثيرٍ من الخلافاتِ ليسَ رغبة صادقة في طلب الحق؛ بل تقف وراءها نزعات شخصية، كشهوةِ الشهرةِ، والتطلعُ إلى الزعامة، والرغبة في تعظيم الجماعة أو الحزب، وهي أمراض نفسية خطيرة تهدم وحدة الأمة من الداخل.

وللخروج من هذه الأزمة، وإرساء أجواء الوحدة الاجتماعية والدينية في الأمة، فإننا بحاجةٍ إلى تبني استراتيجيةٍ شاملة، تقوم على المبادئ التالية:

١ - **تدريسُ «أدبِ الاختلاف» في المؤسساتِ التعليمية**: يتحتمُ علينا أن نُدرجَ مادةَ «آدابِ الاختلاف» كمقررٍ أساسي وإلزاميٍّ في مناهج مدارسنا وكلياتنا وجامعاتنا. علينا أن نعلّمَ أجيالَنا الناشئةَ كيفَ يختلفون بأدب، وكيفَ يسوقونَ الحجة بموضوعية، وكيفَ يستمعونَ لرأيِ المخالفِ ويحاورونه باحترام، ويردون عليه بالحكمة والروية.

٢ - **أن يكونَ العلماءُ والقادةُ قدوةً عملية**: تقعُ على عاتقِ علماءِ الأمةِ وقادتِها الفكريين مسؤوليةُ أن يقدّموا من فوقِ المنابرِ، ومن خلالِ سيرتهم العمليةِ، نموذجًا يُحتذى به في الوحدةِ والتسامح. وعليهم، بدلًا من إثارةِ المناظراتِ حولَ المسائلِ الفرعية، أن يوحّدوا صفوفَهم ويرفعوا أصواتَهم للتصدي للتحدياتِ المشتركةِ التي تواجهُ الأمةَ، كالإلحادِ

واللادينيةِ والانحطاطِ الأخلاقي.

٣- إبـراز الجوانـب المـشتركةِ والتركيـزُ علـى الأمور المُتّفقِ عليها: إنَّ ما يزيدُ على تسعينَ بالمئةِ من تعاليمنـا هـي قـضايا مـشتركة بيننـا؛ فربُّنـا واحـد، ورسولُنا واحد، وقرآنُنا واحد، وقبلتُنا واحدة. لذا، يجبُ علينا أن نُسخِّرَ حواراتِنا وطاقاتِنا لإبرازِ هذه المـشترَكات، لا أن نبـدّدها في مـسائل خلافيـة قليلـة تفرّقُ صفوفنا. فحينما تكونُ الأساساتُ متينة، فإنَّ اخـتلافَ الفـروع لـن يـضرَّ بنيـان الأمـة أو يزعـزع وحدتها.

٤- إشاعةُ ثقافةِ الحوار وتعزيزُها: يتوجّبُ علينا أن نُحييَ في مجتمعاتنا ثقافةَ التحاورِ، وفن الاستماع، وقبول الآخر. علينا أن نتذكّرَ دومًا أنَّ المسلمَ الذي نختلفُ معه في الرأي ليس عدوًا لنا؛ بل هو أخونا في الـدين والإنـسانية. قـد تفـصلُ بيننـا وبينـه مـسافةٌ فكرية، ولكنَّ قدسيةَ رابطةِ الإيمانِ والإنسانيةِ يجبُ أن تظلَّ مصونةً في كلِّ حال.

خلاصةُ القول

إنَّ اخـتلافَ الـرأيِ هـو زينـة الفكـرِ الإنـساني، وحقيقةٌ من حقائقِ الكونِ الفطرية. والإسلامُ يُقرُّ بهذا الاختلاف، ولكنه يضبطهُ بسياجٍ من الأخلاقِ والآداب. وما دامتِ الأمةُ قد التزمت بهذه الآداب، ظـلَّ الاخـتلافُ لهـا رحمـةً، وسـببًا في رُقيّهـا العلمـيِّ والفكري. ولكن حينَ تخلت عن الإخلاصِ والعلمِ والاحـترامِ والتسامح، انقلبَ هـذا الاختلافُ نفسُه إلى نقمةٍ وفرقةٍ وسببٍ في انحطاطنا.

تقفُ الأمةُ الإسلاميةُ اليومَ على مفترقِ طرقٍ حَرِج. وأمامَنا سبيلان لا ثالثَ لهما: إمّا أن نحترقَ بنيرانِ خلافاتِنا الفرعيةِ حتى نفقدَ ما تبقّى لنا من قـوة، وإمّـا أن نعـودَ إلى إرثِ أسـلافنا، لنـتعلّمَ مـن جديـدٍ فـنَّ الوحـدةِ عـلى الـرغمِ مـن الاخـتلاف. فالوحدةُ لا تعني أبدًا أن نُفكّرَ جميعًا بالطريقةِ ذاتها؛ بل تعني أن يحترمَ كلٌّ منا حقَّ الآخرِ في التفكير، وأن نتكـاتفَ في سـبيلِ تحقيـقِ أهـدافنا المـشتركةِ كالجسدِ الواحد.

فلنتعاهـدْ إذن عـلى ألا نـسمحَ للاختـلافِ بـأن يتحولَ إلى افتراق. فلنبدّدْ بنورِ العلمِ ظلماتِ الجهل، ولنجابهْ بسلطانِ الحجةِ سطوةَ العاطفة، ولنُسقِطْ بالمحبـةِ والاحـترامِ جـدرانَ الكراهيـةِ والتعـصّب. فهذا هـو الـسبيلُ الـذي بـه تستعيدُ الأمـةُ الإسـلاميةُ مجدها ووقارَهـا المفقـود، وتقـدّمُ للعـالمِ مـرةً أخـرى مثالًا لأمـةٍ متسامحةٍ وموحَّـدة، كـما كانـت في أزهـى عصورها.

* * *

الكذب على رسول اللّه أو الحديث الموضوع

بقلم: الشيخ محمد عبد الظاهر خليفة(*)

لا نرى أكبر جرمًا ممن يتطاول على رسول الله ﷺ بالكذب والاختلاق عليه، بعد الكذب والافتراء على الله عز وجل.

وكفى هذا المتطاول ذمًا أن يقال له: «دجال، وكذاب، وأفاك» وكفاه أيضًا أن أعد الله له عذابا أليما في نار جهنم، كما أخبرنا الصادق الأمين بقوله: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

ولقد أساء إلى الإسلام في عصوره الغابرة، وعهوده السابقة، أقوام أفاكون كمحمد بن سعيد المصلوب بالشام، وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، والكلبي بالكوفة، ومحمد بن زياد اليشكري، وغيرهم.

حيث اختلقوا من عند أنفسهم أحاديث نسبوها إلى النبي ﷺ اتباعًا للهوى وحبًا للتقرب من الرؤساء، وقد كذب بعض هؤلاء الوضاعين تشويهًا لصحيفة الإسلام النقية الطاهرة، كما فعل الزنادقة الذين دسوا على دين الله القويم، والذين أدخلوا على السنة المطهرة الآلاف المؤلفة من الأحاديث المصنوعة المكذوبة فقد قيل: إنهم وضعوا أربعة عشر ألف حديث يريدون بها إفساد الدين وتشويه محاسن الإسلام لما وقر في نفوسهم من الحقد على الإسلام وأهله.

ومما وضعوه: ما روي عن حميد عن أنس بن مالك مرفوعًا. «أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي – إلا أن يشاء الله – » فقد وضع محمد بن سعيد بن حسان الأسدي المصلوب قوله في الحديث – إلا أن يشاء الله – لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة، فقد قتله أبو جعفر المنصور ثم صلبه بسبب الزندقة.

وكذب بعضهم لفرط العصبية والانتصار للمذاهب كما فعل الشيعة، والخوارج، والكرامية(١)، والخطابية(٢)، والسالمية(٣).

كما كذب آخرون بقصد الإغراب، وقصد

(*) المفتش بالأزهر الشريف.

الاشتهار، أو غلبة الجهل كبعض المتعبدين الذين وضعوا أحاديث في فضائل السور ليرغبوا الناس في ا لاشتغال بالقرآن، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، أو قصد التكسب والارتزاق، والتقرب للعامة بغرائب الروايات.

روى ابن الجوزي أن أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين صليا في مسجد الرصافة فقام قاض في هذا المسجد فقال:

حدثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال لا إله إلا الله خلق من كل كلمة طيرا، منقاره من ذهب وريشه من مرجان، وأخذ في قصته نحوا من عشرين ورقة.

فلما فرغ من القصة، وأخذ يجمع الهبات والعطيات عارضه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قائلين له: «لم نقل هذا، ولم نسمع به قط في حديث رسول الله فقال:

لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما تحققت هذا إلا الساعة، فوضع الإمام أحمد كمه على وجهه وقال ليحيى: دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما.

وقديمًا أكثر القصاص من الأحاديث الموضوعة التي ليس لها أصل، وكان ثقاة المحدثين يتعرضون لتكذيبها فيتعرضون لسخط العامة، والإيقاع بهم.

فابن الجوزي في كتابه (القصاص والمذكرون) يذكر أن الشعبي في أيام عبد الملك بن مروان نزل تدمر(٤) فسمع شيخا عظيم اللحية يقول:

«إن الله خلق صورين في كل صور نفختان نفخة الصعق، ونفخة القيامة».

قال الشعبي: فرددت عليه وقلت: «إن ا لله لم يخلق إلا صورا واحدا، وإنما هي نفختان. فقال لي: يا فاجر إنما يحدثني فلان عن فلان، وترد علي، ثم رفع نعله وضربني بها، وتتابع القوم علي ضربًا فما أقلعوا حتى قلت لهم: إن الله خلق ثلاثين صورا.!!

قال ابن الجوزي في كتابه «الموضوعات»: معظم البلاء في وضع الحديث من القصاص!

لأنهم يريدون أحاديث ترقق، وتنفق، والصحاح تقل في هذا.

ولو توخينا الموضوعات وهي الأحاديث المكذوبة على رسول الله وخاتم الأنبياء لوجدنا فيها من الأباطيل والأكاذيب والترهات، ما تقشعر منه الأبدان، وتتقزز من أجله النفوس؛ إذ فيها ما يتنافي مع سماحة الدين، ويتصادم مع نصوصه.

ولولا أن قيض الله للحديث من أعلام الرجال من يقوم بتطهيره من أدران هؤلاء الدجالين الآثمين لطغت أباطيلهم على جماله الرائع، ومحاسنه الجميلة.

فجزاهم الله أحسن الجزاء تلقاء ما قاموا به من الجـرح والتعـديل، ونقـد الحـديث ورواتـه وبيـان الـصحيح منه والمـصنوع، والحسن منه والـضعيف، والمقبـول منه والمـردود حتى ألفوا في هـذا الغـرض الموسوعات الضخمة، والأسفار ا لثقيلة التي تنوء بالعـصبة أولي القـوة، فمـن ذلـك: الجـرح والتعـديل لابن أبي حاتم، وكتب الذهبي وهي فريدة في بابها، وكتـاب الكامـل لابـن عـدي في الـضعفاء، وكتـاب الميـزان للحـافظ العـسقلاني، وكتـاب العلـل للإمـام أحمـد بـن الخـلال، والعلـل المتناهيـة لابـن الجـوزي، واللآلـئ المـصنوعة في الأحاديـث الموضـوعة لجـلال الدين السيوطي وغيرها مما لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به.

علامات للوضع

ولقــد وضــع هــؤلاء للحــديث الموضــوع علامات وقرائن يعرف بها، كأن تظهر عليه مسحة الاخـتلاق، وتـشم منـه رائحـة الوضـع، وذلـك بـأن تأباه العقول السليمة، وتنفر القلوب الصحيحة.

قال ابن الجوزي:

«إن الحـديث المنكـر يقـشعر لـه جلـد الطالـب للعلم، وينكسر منه قلبه في الغالب».

وقال الربيع بن خيثم:

«إن للحـديث ضـوءا كـضوء النهـار نعرفـه، وظلمة كظلمة الليل ننكره».

وطبيعي أنه لا يعرف هذا إلا من له ملكة قوية في فن الحديث واطلاع واسع.

ومن أمثلة هذا النوع: قدس العدس على لسان سبعين نبيا آخرهم عيسى بن مريم.

– لـو اعتقـد أحـدكم في حجر لنفعه – الأرض عـلى صـخرة، والـصخرة عـلى قـرن ثـور، فـإذا حـرك الثور قرنه تحركت الصخرة.

ومـن القـرائن مـا يؤخـذ مـن حـال الـراوي: كـما وقـع لغيـاث بـن إبـراهيم النخعي حيـث دخـل عـلى الخليفة المهدي (والد هارون الرشيد) فوجده يلعب بالحمام فساق في الحال إسنادا إلى النبي ﷺ أنه قال:

«لا سـبق إلا في نـصل أو خـف، أو حـافر، أو جناح، فزاد في الحديث أو جناح».

فعرف المهدي أنه كذب لأجله فقال له: أشهد أن قفاك قفا كذاب، وأمر بذبح الحمام.

ومـن علامـات الوضـع في الحـديث أيـضًا، مـا يؤخذ من حال المروي:

كأن يكون مناقضا لنص القرآن مثل: «ولد الزنا لا يدخل ا لجنة إلى سبعة أبناء» فإن هذا الكلام مخالف لصريح قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أو مناقضا للسنة المتواترة، أو الإجماع القطعي، أو مخالفا للعقل كالحديث الذي وضعه أحد الملاحدة

وتفوه فيه بكلام لا يصدر من النبوة، ونطق سفها فقال مسندا للرسول عليه السلام وهو منه براء:

«رأيت ربي بمنى يوم ا لنفر على جمل أورق عليه جبة صوف أمام الناس».

ومثل: «أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعًا، وصلت عند المقام ركعتين».

أو يكون الحديث مخالفا لحقائق التأريخ المعروفة عن عصر النبوة مثل:

«دخلت الحمام فرأيت رسول الله جالسا وعليه مئزر».

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يدخل حمامًا عامًا قط، ولم تكن الحمامات العامة معروفة في الحجاز في عصر النبوة، ومثل:

«اتقوا البرد؛ فإنه قتل أخاكم أبا الدرداء».

فالمعروف تأريخيًا أن أبا الدرداء «عويمر بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري الصحابي الجليل والفقيه العابد الزاهد» مات بعد رسول الله ﷺ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سنة ٣٢هـ.

ومن علامات الوضع في الحديث أن يكون فيه وعيد شديد على ذنب صغير مثل:

«من ترك العشاء قال له ربه: لست ربك فاطلب ربًا سواي»

أو يكون فيه وعد عظيم على فعل شيء حقير مثل:

«من أطعم لقمة بنى الله له في الجنة ألف مدينة في كل مدينة ألف بيت، في كل بيت ألف حورية و وصيفة، ولقمة في بطن جائع أفضل من بناء ألف جامع.

وإنك لتجد كثيرا من هذا القبيل فيما سمى (المجموعة المباركة) التي عكف عليها بسطاء الناس، وقدسوها كأنها كتاب سماوي أو وحي إلهي، ولا أدل على ما فيها من الافتراء والكذب من حديث استغفار عبد الله بن سلطان. ومثله في كتاب تنبيه الغافلين، وكالوصية التي وضعها دساسو المبشرين ونسبوها إلى الشيخ أحمد ويزعمون أنه خادم الحجرة الشريفة.

وكبدائع الزهور الذي ملئ بأساطير الأولين وترهات الأقدمين.

ولا تخلو بعض كتب التفسير كالخازن والبيضاوي والكشاف مع جلالة قدر أصحابها من الأحاديث الواهية الموضوعة كحديث الغرانيق، وأحاديث فضائل السور التي رويت عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي قاضي مرو فقيل له: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال:

إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق

فوضعت هذا حسبة (أي احتسابا وابتغاء وجه الله)

وكتب الشيخ عبد البر الأجهوري بهامش شرح الألفية ما نصه:

اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها «الفاتحة والزهروان – البقرة وآل عمران – والأنعام والسبع الطوال مجملًا (البقرة إلى آخر براءة بعدها الأنفال سورة واحدة) والكهف، ويس، والدخان، والملك، والزلزلة، والكافرون، والنصر، والإخلاص، والمعوذتان، وما عداها لم يصح فيه شيء انتهى (السيوطي).

رب قائل يقول: هل تحل رواية الحديث الموضوع (أي المكذوب) للعالم بحاله؟

والجواب: لا تحل روايته مطلقا سواء أكان في فضائل الأعمال أم في الترغيب والترهيب أم في المواعظ والقصص، أم في صفات الله تعالى إلا إذا قرن ببيان الوضع لقوله ﷺ «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» رواه مسلم.

قيل لابن حجر الهيثمي:

إن خطيبا ينقل الأحاديث من غير أن يعزوها، هل يجوز له ذلك؟

فأجاب رحمه الله بما يأتي:

ما ذكره الخطيب في خطبته من الأحاديث من غير أن يبين رواتها، أو من ذكرها جائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث، أو ينقلها من كتاب مؤلفه كذلك.

وأما الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها في كتاب ليس مؤلفه كذلك فلا يجوز، ومن فعله عزر.

نسأل الله تعالى أن يجنبنا الزلل، ويعصمنا من الوقوع في الخطأ والخطل، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

* * *

الهوامش:

(١) الكرامية – (بتشديد الراء مع فتح الكاف) قوم ينسبون لمحمد بن عبد الله بن كرام.

(٢) الخطابية – (بفتح الخاء وتشديد الطاء) فرقة تنسب لأبي الخطاب الأسدي كان يقول: بأن الله حل في أناس من أهل البيت على التعاقب، ثم أدعى الالوهية ثم قتل وجاء أتباعه من بعده وقالوا: أبو الخطاب نبي، وفرضوا طاعته بل زادو على ذلك فقالوا: الأئمة أنبياء، والحسن والحسين ابنا الله، وجعفر الصادق إله، ولكن أبو الخطاب أفضل منه.

(٣) السالمية: فرقة تنسب للحسن بن محمد بن أحمد بن سالم السالمي.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان: تدمر مدينة قديمة مشهورة في برية الشاب بينها وبين حلب خمسة أيام، وهي قريبة من حمص، ومبانيها من عجائب الأبنية كانت موضوعة على العمد الرحام وهي الآن قرية صغيرة، لم يكن فيها إلا أكواخ حقيرة، وسط صحراء مجدبة، وقد خربت الزلازل آثارها. «فسبحان من يرث الأرض ومن عليها».

* * *

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

على تجهيز الأوراق والمستندات التي لابد أن يحصل عليها كل مواطن. وتبين من خلال المسح الميداني أناس يستحقون العون والمساعدة حقًا، ولايَسألون الناس إلحافًا فلايصل إليهم ما يستحقون من المعونات. ويحتضن المسجد برامج حفظ القرآن الكريم في جزء مخصص منه يقوم بتحفيظ الصغار القرآن الكريم، و كُتاب خاص بالبنات تقوم واحدة منهن بتعليمهن أساسيات الدين والأدعية المأثورة، وكُتاب خاص بالبنين، يعلمونهم مبادئ الدين وأساسياته، كما يقدم في جانب من جوانب المسجد الدروس الإضافية لطلاب المدراس العصرية، كما يقوم المسجد بعقد حلقات دروس القرآن الكريم والحديث النبوية من حين لآخر.

ومن البرامج الاجتماعية التي تقام من على منصة هذا المسجد النموذجي حلقات الإرشاد الزواجي (Nikah counseling) للشباب والشابات المقبلين على الزواج وتوجيههم استنادًا إلى مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية بجانب التركيز على الاحترام المتبادل و المسؤوليات والحقوق، علاوة على الجوانب العاطفية والأخلاقية والروحية التي تعزز العلاقة الزوجية، وعلى التنويه بدور كل واحد منهما في الحياة.

وينطلق من المسجد نفسه نشاطات هادفة إلى الإصلاح الاجتماعي، وتطهيره من كثير من العقائد والطقوس والعادات التي تسربت إلى المسلمين بجر جوارهم أو لبعدهم عن دينهم، ومتطلباته، فـ«للمسجد في المجتمع الإسلامي دوره التاريخي، فهو يبقى بقاء العقيدة، ويخلد خلود الإيمان، ومن مناراته تعلو أصوات المؤذنين، وتتكرر كلمات التوحيد التي تواصل رسل الله تبينها لأممها، واضحة المعالم، نيرة السبل، بينة المراسم. هذه العقيدة التي تجمع الشتات، وتلم الشعث، وتربط الأفراد بعضهم ببعض، دون نسب ولا صلة، فتذوب أمامها كل الفوارق، وتزول بها كل الحواجز».

كما يعقد هذا المسجد النموذجي دورات تنمية المهارات للنساء (skill development course for female)، بالإضافة إلى كُتاب على الإنترنت، ودورات مسابقات في السيرة النبوية؛ فكل ذلك تحت سقف واحدٍ، وتحت مظلة واحدة، من هذا المسجد المثالي الذي يشكل نموذجًا يحتذى به، وليتهم يحتذون، فما أحوج المسلمين إلى مثل هذه المساجد في عصرنا الحاضر ليستعيد المسجد دوره في تلبية حاجات العصر و مواجهة تحدياته المتفاقمة من حين لآخر: دوره في تأصيل العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتربية النشء تربية دينية أخلاقية، وتنمية الوعي والوازع الديني؛ ودوره في تقوية الأواصر وتعزيز الروابط الاجتماعية، و القضاء على الفروق الطبقية، وفي إدارة التكافل الاجتماعي والخيري، بجانب حث المسلم على المسؤوليات المجتمعية، مما يشكل أكبر حافز لتقدم الأمة ورخائها وسخائها.

فهذه بعض الجوانب والنواحي التي يقوم بها هذا المسجد النموذجي، وحقًا، إنه مسجد نموذجي، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فيتنافس المتنافسون.

* * *

مسجد نموذجي

لعل القارئ الكريم يظن أن الكاتب يقصد بالمسجد النموذجي هو المسجد المثالي في هندسته المعمارية المميزة الجميلة الرائعة روعة القمر ليلة البدر، فكثير من المساجد في العالم يحمل سمات تميزها عن غيرها من المساجد في هندستها، أو يظن أن الكاتب يقصد به المسجد النموذجي في مناراته العالية الناطحات السحاب، وفي الأحجار التي استخدمت في بنائه وتشييده؛ فكل ذلك لم يقصده الكاتب، فما الذي قصده يا ترى؟

يقصد الكاتب بهذا المسجد النموذجي المسجد الذي يتفرد بنشاطاته وأعماله، المسجد الذي يذكر بكثير مما كانت تكون عليه المساجد في خير قرون هذه الأمة، فلم تكن المساجد مجرد مواضع تؤدى فيها الصلوات الخمس والجمع والأعياد، فليس ذلك إلا واحدًا من أبرز نواحي أهداف واستخدامات المساجد في تلك القرون الفاضلة.

فقد كانت المساجد تلعب في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهد خلفائه الراشيدين، و في عهود الازدهار الإسلامي دورًا لايستهان به في تعليم المسلمين وتثقيفهم وتربيتهم وتوعيتهم، بالإضافة إلى برامج التكافل الاجتماعي والحسبة، ولم يقتصر دورها على إقامة الصلاة وحدها؛ بل كانت تشكل نقطة تنطلق منها أنشطة كثيرة، فكانت المساجد تشهد الاجتماعات، واستقبال الوفود، وحلق الذكر والإعلام والعلم، وانطلاق الدعوة والسرايا والبعوث، وإبرام كل أمر له شأن في السلم وفي الحرب.

وفي إحدى الزيارات لمدينة من المدن الهندية الشهيرة بالتكنولوجيا دخلوا بنا مسجدًا وسطًا بين المساجد، لا بالواسع البائنة سعته، ولا بالمخنوق المضيق على أهله، قالوا: هذا مسجد نموذجي ،لاينحسر دوره في إقامة الصلوات الخمس والجمع والأعياد؛ بل يتعدى إلى أعمال البر والخير، وبث روح التعاون والتكافل الاجتماعي، وتوجيه المقصرين في الصلوات وحضور الجماعات، وتفقد أحوال أهل الحي المحيطين به، فيما يهمهم من الأمور الشرعية والأخلاقية حتى والمادية، والتفاني في جمع شملهم وتحبيب الإيمان إليهم، وتنفيرهم من الكفر والفسوق و العصيان، ونشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة بكل صورها وأنواعها وفنونها وسمومها.

وذكروا أن من أبرز مناشط هذا المسجد النموذجي: المسح الميداني لجيران المسجد و أهله ممن يحضرون الصلوات أو لايحضرون للتعرف على حاجاتهم الدينية والمادية والمعنوية، و تقديم ما يمكن تقديمه من العون

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري